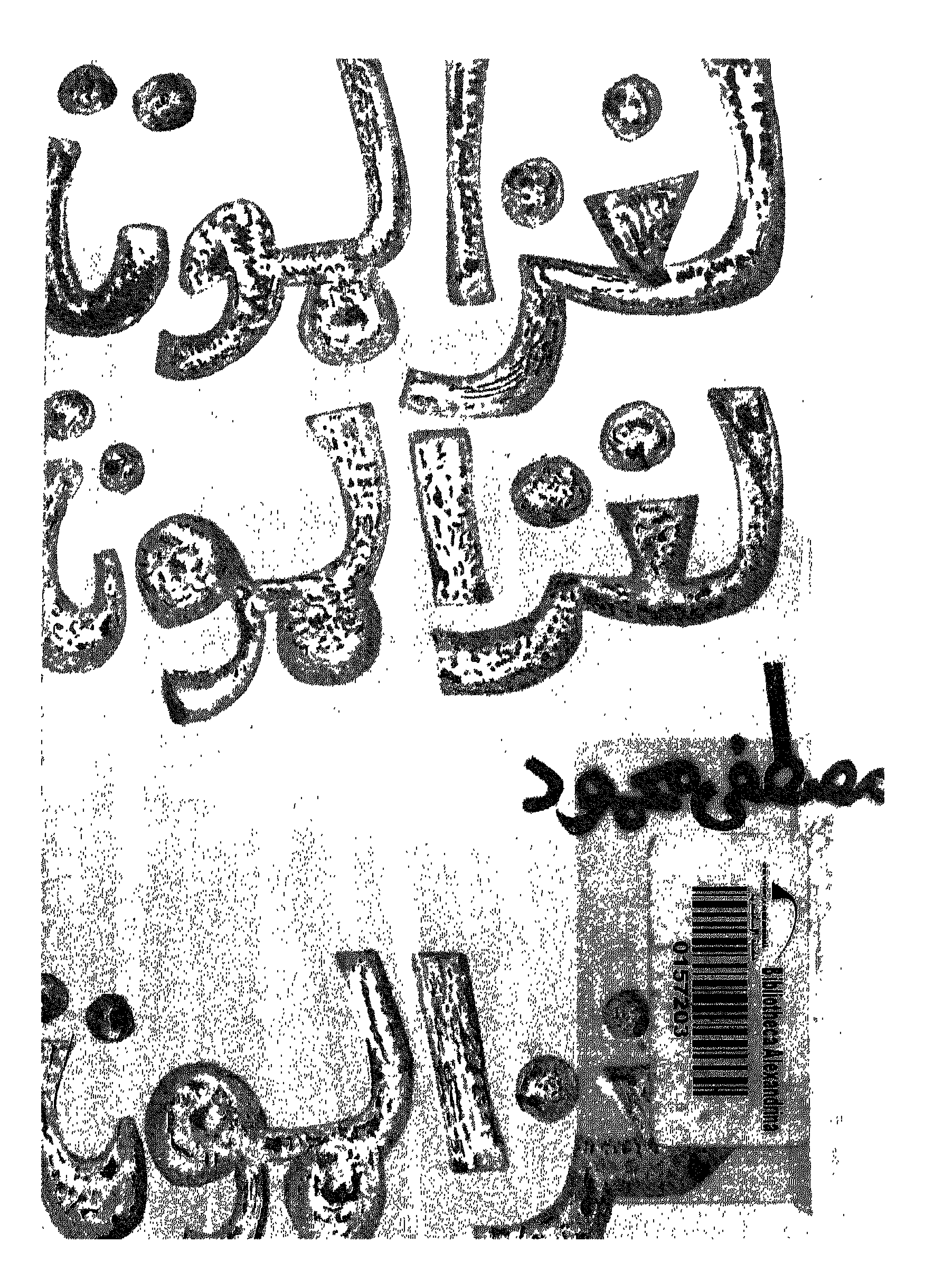


لغز الموت
لغز الموت
مصطفى محمود
Bibliotheca Alexandrina
0157203

مصطفى محمود

لغز الموت

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

اللغـز

كل منا يحمل جثته على كتفه ..

ليس هناك أغرب من الموت ..

انه حادث غريب ..

أن يصبح الشيء .. لا شيء ..

ثياب الحداد .. والسرادق .. والموسيقى .. والمباخر ..

والفراشون بملابسهم المسرحية : ونحن كأننا نتفرج على رواية .. ولا نصدق ولا أحد يبدو عليه أنه يصدق ..

حتى المشيعين الذين يسيرون خلف الميت لا يفكرون إلا فى المشوار .

وأولاد الميت لايفكرون إلا فى الميراث .

والحانوتية لايفكرون إلا فى حسابهم .

والمقرئون لايفكرون إلا فى أجورهم ..

وكل واحد يبدو أنه قلق على وقته أو صحته أو فلوسه..

وكل واحد يتعجل شيئا يخشى أن يفوته .. شيئا ليس الموت أبداً .

إن عملية القلق على الموت بالرغم من كل هذا المسرح التأثيرى هى مجرد قلق على الحياة . .

لا أحد يبدو أنه يصدق أو يعبأ بالموت . . حتى الذى يحمل النعش على أكتافه .

الخشبة تغوص فى لحم أكتافه . . وعقله سارح فى اللحظة المقبلة وكيف يعيشها . .

الموت لا يعنى أحداً .. وإنما الحياة هى التى تعنى الكل..

نكتة ! . .

من الذى يموت إذن ؟ . .

الميت ؟ . .

وحتى هذا . . لا أحد يدرى مصيره . .

إن الجنازة لا تساوى إلا مقدار الدقائق القليلة التى تعطل فيها المرور وهى تعبر الشارع . .

وهى عطلة تتراكم فيها العربات على الجانبين . . كل عربة تنفخ فى نفيرها فى قلق . لتؤكد مرة أخرى أنها تتعجل الوصول إلى هدفها . . وأنها لا تفهم . . هذا الشيء الذى اسمه الموت .

ما الموت . . وما حقيقته . .

ولماذا يسقط الموت من حسابنا دائما . حتى حينما نواجهه

* * *

لأن الموت فى حقيقته حياة .

ولأنه لا يحتوى على مفاجأة . .

ولأن الموت يحدث فى داخلنا فى كل لحظة حتى ونحن أحياء . .

كل نقطة لعاب . . وكل دمعة . . وكل قطرة عرق . . فيها خلايا ميتة . . نشيعها إلى الخارج بدون احتفال . .

ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت . . فى دمنا . . دون أن ندرى عنها شيئا . ومثلها الكرات البيض . . وخلايا اللحم والدهن والكبد والأمعاء . . كلها خلايا قصيرة العمر تولد وتموت ويولد غيرها وتموت . . وتدفن جثثها فى الغدد أو تطرد فى الافرازات فى هدوء وصمت . دون أن نحس أن شيئا ما قد حدث .

مع كل شهيق وزفير . . يدخل الأكسجين . . مثل البوتاجاز إلى فرن الكبد فيحرق كمية من اللحم ويولد حرارة تطهى لنا لحما آخر جديداً نضيفه إلى أكتافنا .

هذه الحرارة هى الحياة . .

ولكنها أيضا احتراق . . الموت فى صميمها . . والهلاك فى طبيعتها .

أين المفاجأة إذن وكل منا يشبه نعشا يدب على ساقين . .

كل منا يحمل جثته على كتفيه فى كل لحظة . .

حتى الأفكار تولد وتورق وتزدهر فى رؤوسنا ثم تذبل وتسقط . . حتى العواطف . . تشتعل وتتوهج فى قلوبنا ثم

تبرد .. حتى الشخصية كلها تحطم شرنقتها مرة بعد أخرى وتتحول من شكل .. إلى شكل ..

إننا معنويا نموت وأدبيا نموت وماديا نموت فى كل لحظة .

وأصدق من هذا أن نقول أننا نعيش . ماديا نعيش وأدبيا نعيش ومعنويا نعيش .. لأنه لافرق يذكر بين الموت والحياة ... لأن الحياة هى عملية الموت .

لأن الأوراق التى تنبت من فروع الشجرة .. ثم تذبل وتموت وتسقط .. وينبت غيرها ... وغيرها .. هذه العملية الدائبة هى الشجرة ..

لأن الحاضر هو جثة الماضى فى نفس الوقت .

لأن الحركة هى وجودى فى مكان ما وانعدامى من هذا المكان فى نفس اللحظة . فبهذا وحده أمضى وأتحرك .. وتمضى معى الأشياء . .

لأن الحياة ليست تعادلية ، ولكنها شد وجذب وصراع بين نقيضين ، ومحاولة عاجزة للتوفيق بينهما فى تراكيب واهية هى فى ذاتها فى حاجة للتوفيق بينها .. مرة .. ومرة ومرات .. بدون نهاية وبدون نجاح أبداً .. وبدون الوصول إلى أى تعادلية ..

الحياة ليست تعادلية بين الموت والوجود ولكنها اضطراب بين الاثنين وصراع يرفع أحدهما مرة ويخفضه مرة أخرى .

الحياة أزمة .. وتوتر ..

ونحن نذوق الموت فى كل لحظة .. ونعيشه .. فلا

تضطرب بل على العكس .. نحس بكياننا من خلال هذا الموت الذى فى داخلنا .. ونفوز بأنفسنا ، ولندركها ، ونستمتع بها ..

ولا نكتفى بهذا .. بل ندخل فى معركة مع مجتمعنا .. وندخل فى موت وحياة من نوع آخر • موت وحياة على نطاق واسع تتصارع فيه مجتمعات ونظم وتراكيب إنسانية كبيرة •

ومن خلال هذا الصراع الأكبر ، نحس بأنفسنا أكثر .. وأكثر .. إنها ليست خلايا تولد وتموت فى جسد رجل واحد ، ولكنها أيضا مجموعات بشريه تولد وتموت فى جسم المجتمع كله •

إنها الموت يحدث على مستويات أكبر •

الموت إذن حدث دائب مستمر .. يعترى الإنسان وهو على قدميه ويعترى المجتمعات وهى فى عنفوانها •

وهو فى نسيج الانسان .. فى جسده .. وفى كل نبضة ينبضها قلبة مهما تدفقت بالصحة والعافية •

[وبالموت تكون الحياة .. وتأخذ شكلها الذى نحسه ونحياه لأن ما نحسه ونحياه هو المحصلة بين القوتين معا .. الوجود والعدم وهما يتناوبان الانسان شدا .. وجذبا .

ما السر إذن فى هذه الدهشة التى تصيبنا حينما يقع أحدنا ميتـــا •

ولماذا يبدو لنا هذا الحديث غريبا .. غير معقول .. غير قابل للتصديق .

ولماذا نقف مشدوهين أمام الحادث نكذب عيوننا .. ونكذب حواسنا .. ونكذب عقلنا .. ثم نمضي .. وقد أسقطنا كل شيء من حسابنا .. وصرفنا النظر .. واعتبرنا ما كان .. واجبا .. ولباقة .. ومجاملة .. أدبناها وانتهينا منها .

لماذا لانحمل هذا الحادث على محمل الجد ..

ولماذا نرتجف من الرعب حينما نفكر فيه .. وتنخلع قلوبنا حينما نصدقه وتضطرب حياتنا حينما ندخله في حسابنا ونضعه موضع الاعتبار .

السبب أنه الحادث الوحيد المصحوب برؤية مباشرة .. فما يحدث داخلنا من موت لانراه .. لانرى كرات الدم وهي تولد وتموت .. لانرى الخلايا وهي تحترق .. لانرى صراع الميكروبات وهي تقتلنا ونقتلها ..

وخلايانا لاترى نفسها وهي تفنى . .

كل ما يحدث في داخلنا يحدث في الظلام . . ونحن ننام ملء جفوننا وقلوبنا تدق بانتظام وتنفسنا يتردد في هدوء .

الموت يسترق الخطى كاللص تحت جنح الليل . . ويمشي على رؤوسنا فتبيض له شعراتنا . . شعرة . . شعرة . . دون أن نحس . . لأن دبيبه وهو يمشي هو دبيب الحياة نفسها .

إن أوراق الشجرة تتساقط ولكن الشجرة تظل ماثلة

للعيان دائمة الخضرة دائمة الازدهار . . تظل هكذا حتى تهب عاصفة تخلعها من جذورها وتلقى بها فى عرض الطريق . .

وحينئذ فقط يبدو منظرها قاتما يبعث على التشاؤم . . تبدو فروعها معروقة عارية . . وجذورها نخرة . . وأوراقها مصفرة . .

لقد انتهت .. لم تعد شجرة .. أصبحت شيئاً آخر .. أصبحت خشبا .

وهذا هو ما يحدث .. حينما نشاهد الانسان وهو يسقط جثة هامدة .

إنه يبدو شيئا آخر ويبدو الحادث الذى حدث فجأة .. حادثا غريبا بلا مقدمات ..

لقد انتهى الانسان كله فجأة ..

ويبدأ العقل فى التساؤل ..

هل أنتهى أنا أيضا كلى فجأة كما انتهى ذلك الانسان .. وكيف ولا شيء فى احساسى يدل على هذه النهاية أبدا .

كيف يحدث هذا .. وأنا جياش بالرغبة .. ممتلىء بالارادة .. بل أنا الامتلاء نفسه .

كيف يتحول الامتلاء إلى فراغ .. وفجوة .

أنا .. أنا ؟! .. الذى أحتوى على الدنيا .. كيف أنتهى هكذا وأصبح شيئا تحتوى عليه الدنيا .

أنا ؟ ..

إن كلمة .. أنا .. كلمة كهربائية .. إنها كالضوء أرى بها كل شيء .. ولا يستطيع شيء أن يراها .. انها أكبر من أى كلمة أخرى وأكبر من أى حقيقة .. لأن بها تكون الحقائق حقائق ..

إنها فوق كل شيء وفوقى أنا أيضا لأنها ترانى وتشعر بى .. انها مصدر الاشعاع كله .. وحيث يتمثل لى هذا المنظر المفجع الذى يلقى فيه انسان مصرعه .. فهى فوق هذا المنظر أيضا .. لانها تراه .. وفوق الطبيعة .. وفوق قوانينها .. وفوق ظواهرها .

أنا أموت ! ..

من أنا

ومن هو الذى مات ..

إنه بعض منى .. منظر من ملايين المناظر الذى تعبر خاطرى . فكيف أموت أنا أيضا ..

إن التساؤل ما يلبث أن يتحول إلى تمزق فظيع يحطم فيه المنطق نفسه بنفسه .. ويصطدم باستحالات لا حل لها ..

وهكذا تبدأ المشكلة الأزلية ..

لغز الموت ..

إن مصدر اللغز هو هذا الموقف الذى ينتقل فيه العقل من رؤية مباشرة للموت إلى استنتاج مباشر عن موته هو أيضا .. وهو أبو الاشياء .. ونظامها .. وتفسيرها .. ونورها .

ولكنه يعود فيقول :

لا ..

إن الذين يموتون هم الآخرون .

إن التاريخ كله لا يروي قصة واحدة عن موت الـ .. أنا ..

إن الموضوعات تتغير وتتبدل وتولد وتذبل وتموت .. والآخرون يموتون .

أما أنا .. هذه الـ أنا .. لا توجد سابقة واحدة عن موتها .

أنا من مادة أخرى غير كل هذه الموضوعات ... ولهذا أمسك بها وأتناولها وأفهمها .. ولا أستطيع أن أمسك بنفسي وأتناولها وأفهمها .

أنا فوق متناول الجميع .. وفوق متناولي أنا أيضا .. وفوق متناول القوانين والظواهر ..

هناك حلقة مفقودة ..

وهي تفتح بابا تدخل منه الفلسفة : ويتسلل منه الفكر .. ولكنه باب ضيق .. ضيق جدا .. يؤدي إلى سراديب أغلبها مغلقة ورحلة الفكر في هذه السراديب مخيفة مزعجة ولكنها تثير الاهتمام .

وأي شيء يبعث الاهتمام أكثر من الحياة .. والمصير .. ومن أين .. وإلى أين .. وكيف .

* * *

عملية تهريب

الحب قصة جميلة .. الموت مؤلفها ..

الحياة حرارة .. واحتراق .. الموت نسيجها .. والهلاك في صميمها .

أجسادنا تتساقط وهي تمشي .. في كل لحظة هناك شيء يتساقط منا ..

وكلما توهجت حياتنا كلما تآكلت في نفس الوقت ..

العدم كامن في الوجود .. كامن في أجسادنا .. كامن في إحساساتنا ومشاعرنا ..

الخوف .. الشك .. التردد .. القلق .. الكسل .. التراخي .. اليأس .. القنوط .. كل هذه علامات سكون في الشعور .. كلها احساسات عدمية تفسيرها الوحيد أن هناك فجوة في تكويننا .. فجوة نراها بعين الشعور فنخاف ونجزع ونقلق ..

فجوة نطل عليها من داخلنا وإن كنا لانراها بعيننا الواعية .. ولا نتذكرها إلا حينما يقال لنا .. فلان مات .

مات .. ؟! مات ازاي ده كان لسه سهران معانا امبارح لنص الليل .. شيء عجيب ..

ونمصمص شفاهنا .. ثم ننسى كل شيء ونعود إلى حياتنا الآلية .. ولكن عيننا الداخلية تظل مطلة على هذه الفجوة .. وباطننا يظل يرتجف بهذا القلق المبهم ..

الموت بالنسبة لكل منا .. أزمة .. وسؤال .. يبعث على الدهشة والقلق .. والذعر .

ولكنه بالنسبة للكون شيء آخر .

إنه بالنسبة للكون ضرورة وفضيلة .. وخير ..

الموت والحياة حينما ننظر لهما من بعيد .. وهما يعملان فى الكون يظهران وهما يخلقان الواقع .

الموت يبدو مكملا للحياة .. يبدو كالبستانى الذى يقتلع النباتات الفاسدة ويسوى الأرض ويحرثها ليفسح المجال للبذور الصغيرة الرقيقة لتطرح ثمارها .

يبدو كالرسام الذى يمحو بفرشاته خطاً ليثبت على اللوحة خطاً جديداً أفضل منه .

يبدو خالقاً فى ثوب هدام .. فهو يهدم حائط الجسد .. لأن خلف الحائط يوجد ماء الحياة الجارى .

حاول أن تتخيل الدنيا بلا موت .. الدنيا من أيام آدم .. والمخلوقات وهى تتراكم .. فيها .. ولا تموت .

الناس .. والذباب .. والضفادع .. والحشائش .. والديدان

.. وهى تتراكم .. وتتراكم .. ويصعد بعضها على أكتاف بعض .. حتى تسد عين الشمس ..

إن الحياة تبدو شيئا كالاختناق .

إن الكائن الحى يحب نفسه فقط .. ويحب اللحظة الصغيرة التى يعيشها ولهذا يكره الموت .. ولكن الموت يحب كل اللحظات ويحب الزمن .. ويحب المستقبل .. ولهذا يتساقط الناس من غرباله كالنشارة ليقوم على أشلائهم ناس آخرون أحسن منهم وهكذا دواليك .

الموت هو عملية المونتاج التى تعمل مقصها فى الشريط الوجودى كله فتقصه إلى عدة لقطات واقعية .. كل منها له عمر محدود ..

والموت يخلق واقع الاشياء الجامدة أيضا كما يخلق واقع المخلوقات الحية .

الأشياء الجامدة لها نهاية .. والعين تدركها لأن لها نهاية .. نهاية فى الطول والعرض والعمق .. ولو كانت لا نهائية فى طولها وعرضها وعمقها لاختفت .. ولأصبحت عالية على الادراك .. غير موجودة ..

إن التناهى هو الذى يوجدها ..

والتناهى هو الموت .

كل ما فى الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد إذن متناه له حدود .. الموت يأكل أطرافه .. ويقص حواشيه :

يبرزه .. ويوجده ويخلقه فى نفس الوقت ..

الموت فضيلة وخير بالنسبة للكون كله لأن به تكون الأشياء موجودة وتكون المخلوقات مضطرمة بالشعور والحياة.

ولكنه شر الرذائل بالنسبة للانسان الفرد .. بالنسبة لك أنت .. ولى أنا .. لأنه ينفقنا كضرائب إنشاء وتعمير .. ويقدمنا قرابين على مذبح الوجود .

ونحن لانفهم هذا النوع من القربان ... ولا نستطيع ان نفهمه لأنه قربان فظيع .. وتضحية معناها أن نموت ونهلك .

نحن نعيش فى مأساتنا الشخصية .. ونرى الموت كفجوة تفغر فاها تحت أقدامنا فنتشبث بأى شىء نجده حولنا .. ونتشبث بأمهاتنا وبزوجاتنا .. بأطفالنا .. بأصدقائنا .

نشعر بالحب والشوق والحنين إلى يد نمسك بها ونتشبث بها ونحتمى من الجرف الذى ينهار تحتنا .

ونبصر بالمرأة تمد لنا يديها وقلبها وجسدها .. وتتراقص مثل كوبرى عائم على نهر الفناء .. فنهرع إليها محاولين النجاة .. ونشعر بجنون اللذة والسرور والفرح ونحن بين ذراعيها .. نشعر بأننا نولد من جديد .. ونبعث .. ونهرب من المصير ..

ونموت .. ولكن بعد أن نكون قد زرعنا صورتنا فى جسدها وقمنا بتهريب جزء من وجودنا عبر هذا الكوبرى الجميل من اللحم والدم .. الذى مدته لنا مع ابتسامتها .

إن الحب كله قصة جميلة ... مؤلفها هو الموت نفسه ..
وليس الحب فقط .. بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمال وشطحات الخيال والفكر والفن والأخلاق .. كل هذه القيم العظيمة تدين للموت بوجودها .

اعطني أي مثل أخلاقي .. وأنا أكشف لك عن الموت في مضمونه .

الشجاعة قيمتها في أنها تتحدى الموت .

والاصرار قيمته في أنه يواجه الموت .. وهكذا كل مثل أخلاقي .. قوته في أنه يواجه مقاومة .. وهو ينهار .. وينهار مضمونه حينما لا تكون هناك مقاومة في مواجهته .

الفنان والفيلسوف ورجل الدين ثلاثة يقفون على بوابة الموت ..

الفيلسوف يحاول أن يجد تفسيراً ..

ورجل الدين يحاول أن يجد سبيلا للاطمئنان ..

والفنان يحاول أن يجد سبيلا إلى الخلود .. يحاول أن يترك مولوداً غير شرعي على الباب يخلد اسمه .. قطعة موسيقية أو تمثالا أو قصة أو قصيدة .

كلنا يخلقنا الموت .. الموت المدهش .

لولم نكن نموت لما شعرنا بالحب .. فما الحب إلا هستيريا التشبث والتعلق بالحياة .. ومحاولة تهريبها كالمخدرات في بطون الأمهات .

وماالداعى إلى أخلاق فى مجتمع من الخالدين .. إن الأخلاق هى الخرسانة والمسلح الذى ندعم به بيوتنا المنهارة . . ونمسك به هياكلنا الفانية . . فإذا كنا من الخالدين لا نمرض ولا نموت ولا نضعف ولا يصيبنا شر فما لزوم الاخلاق .

إن كل ما هو جميل وخير وحسن فى مجتمعنا خارج من هذه الفجوة . . الموت .

وكل ماهو جميل فى انسانيتنا خارج من هذه الفجوة أيضا .

إن حياتنا غير منفصلة عن موتنا . . فكل منهما مشروط بالآخر .

والأصدق أن نقول أنه لا توجد حالتان . . حياة وموت . . ولكن حالة واحدة هى الصيرورة . . حالة متناقضة فى داخلها ومحتوية على الاثنين معا : الحياة والموت . .

حالة متحركة نابضة صائرة من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة وفى كل لحظة منها تحمل الجرثومتين معاً ، جرثومة نموها وجرثومة فنائها فى نفس الوقت .

وهما جرثومتان لا هدنة بينهما . . ولا تعادل وإنما صراع وتوتر وتمزق وشرر متطاير مثل الشرر الذى يتطاير من قطبى الكهرباء السالب والموجب حينما يلتقيان . . وهما مثلهما أيضا . . تبعثان حرارة ونورا . . هما العاطفة والوعى اللذان يندلعان فى عقل الانسان الذى يعيش هذا الصراع بسالبه وموجبه . .

وهو صراع يبدو فيه العنصر الموجب أقوى من السالب . .

وتبدو الحياة غلابة صاعدة منتصرة . .

* * *

كلام جميل . . ولكنه مع هذا كله لا يجعل الموت جميلا في عيوننا .

نه يفشل حتى في الاعتذار لنا عن عزرائيل وأفعاله . . حتى ولو كانت في صالح الكون . فالنا والكون .. نحن كون في ذاتنا .. وعزرائيل ينتهك أطهر حرماتنا ، نفوسنا .. أنا .. وانت .

إن اجمل اللحظات في حياتي هي التي اقول فيها .. أنا فعلت .. أنا قدمت .. أنا انجزت .. انا اخترعت .. أنا .. أنا.

لا يوجد شيء في وجودي . . أو وجودك .. أغلى من هذه الكلمة الصغيرة . . أنا .. فكيف يمكن أن اتصور أن اموت..

انى استطيع احداث الموت . . استطيع أن أقتل وان انتحر.. كيف يكون الموت احد اختراعاتي . . وأكون أنا أحد ضحاياه في نفس الوقت .

أين اللغز الحقيقي . . أهو الموت . . أم هو هذه الكلمة الصغيرة .. انا ؟ ..

●

أنــا

انا من الخارج لى حدود لى سقف
ينتهى عنده جسدى .. ولكننى من
الداخل بلا سقف ..
ولا قــاع ...

أنا . . كلمة ظريفة .. لا يوجد اظرف منها فى الدنيا .. انها أغنية ..

انها تدخل فى أى جملة فتجعلها جملة مفيدة مهمة .. وتدخل فى أى موضوع فتجعله موضوع الساعة .. لأنه يصبح موضوعى انا .. وفلوسى انا .. وحبيبى انا .. وروحى انا.. وقلبى انا ؟

ولكن انا . . ؟ . . من انا ؟

هل حاول احدكم أن يسأل نفسه هذا السؤال . .

من انا ؟ . .

انا فلان . . فلان ايه . . فلان ابن فلان . . يعنى ايه . . مجرد الفاظ . . مجرد رموز أو اشارات تدل على حقيقتى . . طيب وايه هى حقيقتى ؟ ..

وهنا يبدأ اللغز .

ما هى حقيقتى ؟ . .

انى احاول أن امسك بوجودى واكتشفه وافحصه كما افحص هذه المحبرة فأجد أنه وجود بلا قاع . . وجود مفتوح من الداخل على امكانيات لا نهاية لها . . والقى بحصاة فى هذا البئر الداخلى فلا اسمع لها صوتا . . لأنها تهوى وتهوى الى اعماق بلا آخر . .

انا من الخارج لى حدود .. ينتهى طولى عند ١٧٠ سنتيمتر .. لى سقف ينتهى جسدى عنده . . ولكنى من الداخل بلا سقف وبلا قعر . . وإنما اعماق تؤدى الى اعماق .. وافكار وصور واحاسيس ورغبات لا تنتهى الا لتبدأ من جديد كأنها متصلة بينبوع لا نهائى .. وهى اعماق فى تغير دائم وتبدل دائم .. بعضها يطفو على السطح فيكون شخصيتى وبعضها ينتظر دوره .. فى الظلام

وانا فى الخارج اتبدل ايضا .. الواقع يكشط هذه القشرة التى تطفو خارجى فتطفو قشرة أخرى من عقلى الباطن محلها . .

وكلما امسكت بحالة من حالاتى وقلت هذا هو انا : ما تلبث هذه الحالة أن تفلت من اصابعى وتحل محلها حالة أخرى .. هى أنا .. ايضا ..

شئ محير ! ! ..

وانظر حولى فى العالم .. فأجد أنى اعوم فى هذا العالم كما تعوم البطة فى الماء .. تجدف فيه بريشها ولا تبتل وإنما ينزلق من عليها الماء كأنه من عنصر آخر غريب عنها ..

انا متصل بالعالم منفصل عنه فى نفس الوقت ..

إنه يدخل فى تكوينى بحكم المسكن والمأكل والمشرب والاتصال بالآخرين .. ولكنه غير ملتصق بى .. إنه يذكى شعورى ويثير اهتمامى فقط .. وبمقدار اهتمامى أظل على علاقة به فاذا انتهى اهتمامى نفضته تماما كما تنفض البطة الماء من ريشها حينما تصل الى الشاطئ ..

انى احتضن العالم باختيارى واخلع عليه اهتمامى وشخصيتى وانتباهى واظل مصاحباً له طالما هو .. انا .. فاذا انتهت هذه العلاقة الانانية .. عدت الى نفسى ..

ولكنى لا انجو مع هذا من الابتذال .. والتردى فى هوة الناس .. . .

العالم يبتذلنى احيانا فأذوب فيه بعض الوقت .. افعل ما يطلبه منى رئيس تحرير المجلة التى اعمل بها واؤدى ما يطلبه منى مدير المستشفى الذى اشتغل فيه طبيباً ..

واخضع لروتين العادة والعرف والمجاملات واضيع نفسى فى الثرثرة واختبئ وراء المشاكل اليومية .. واتستر خلف الناس .. واقول وانا مالى .. هم عاوزين منى كده .. الدنيا كلها بتعمل كده ..

وفى هذه الحالات تضيع منى نفسى .. تضيع منى .. انا .. واصبح موضوعا من الموضوعات مثل الكرسى والشجرة والكتاب .. وافقد الشئ البكر الذى يميزنى عن كل شئ .. ويجعل منى نسيجاً وحده .. يجعل منى .. انا .. فلان الفلانى ..

هذه أوقات لا أحس بها . . وانما تبدو ممسوحة ومشطوبة من حياتى . . تبدو فترات موت . .

حريتى تعذبنى . . لأنى حينما اختار . . اتقيد باختيارى . . وتتحول حريتى الى عبودية ومسؤولية .. وهى مسؤولية لا ينفع فيها اعفاء لأنها مسؤولية امام نفسى .. امام الاختيار الذى اخترته انا ..

وليس امامى سبيل غير ان اختار .. لابد ان اختار فى كل لحظة .. فاذا اضربت عن الاختيار .. كان اضرابى نوعا من الاختيار .. على ان ادفع ثمنه فورا ..

وحبى يعذبنى لأنى اريد أن امتلك محبوبتى وأذيبها فى داخلى وأشرب شخصيتها وروحها وجسدها .. اريد أن احولها الى .. انا .. وهذا مستحيل لأنها هى الأخرى لها .. انا .. وذات حرة مثلى ..

ان كل ما نستطيعه هو ان نتعانق وتتلامس شفاهنا .. وتتلامس حقائقنا واسرارنا فى لحظات مضيئة .. ثم نمضى الى حالنا .. كل واحد مغلق على سره .

ان كل ما نملكه هو ان نفتح نوافذنا على الخارج ، ولكننا لا نستطيع ان ننقل عفشنا .. ونسكن بيتاً جديداً .

ان روحنا سر .. وذواتنا قدس الاقداس ..

ان الله يضع كل جنده على باب اذتنا كما يقول طاغور .. ولا يسمح لأحد منهم بالدخول فيها .. لأنها حرم .. حرمها على الكل .. وخلقها حرة كالطائر الغرد ..

* * *

ماذا هناك .. ماذا وراء الباب ..

ماذا بداخلي ..

ارادة . ارادة لا نهائية لا حد لها إلا نفسها .. ارادة حرة خالقة مبدعة .. تنبثق انبثاقاً فى بداءة وفطرة .. احسها ولا اعرفها اكابدها ولا افهمها .. لأنها تفر منى كلما حاولت فهمها كما يفر النوم من عينى كلما حاولت ان اتعمقه واحلله .. وربما كان السبب أنها أصيلة .. اكثر اصالة من العقل والتفكير ولا يمكن ان تكون موضوعاً للعقل والتفكير .. بل العكس هو المقبول .. ان يكون العقل موضوعها وخادمها .. وسبيلها الى بلوغ اهدافها ..

انا اريد .. والعقل يبرر لى ما اريد .. وليس العكس ابدا ..

ان كل شيء خاضع للارادة .. ثانوى بالنسبة لها ..

فى لحظات ابداعى وخلقى - فى اللحظات التى أحس فيها انى اخلق نفسى واخلق الافكار والقيم واكتشف العالم واصنع المعقولات احس انى ادفع العالم كله امامى .. ادفعه كالعربة ..

وفى اللحظات التى اموت فيها واسقط فى هوة العادة والتكرار والتقليد والمجاملات والروتين .. وتضيع ارادتى من يدى .. احس بان العالم كله يدفعنى امامه كالعربة ..

احس ان ارادة حصان فى الطريق يمكنها ان تعدل طريقى وتغير سكنى ..

احس بان عين جارى تجعلنى انكمش فى ثيابى كأنها عين الله ..

لا شيء فى الدنيا اكبر من الارادة ..

الظروف المالية .. والبيئة والوراثة .. لا تلغى الارادة ولا تمحو الحرية أبداً .. ولكنها تؤثر فيها .. تؤثر فى الكيفية التى تعلن بها عن نفسها ..

انا والظروف نتصارع فى لحظة الفعل فقط . . ولكن كلا منا له وجوده البكر .

انا حر وارادتى حقيقة . . تماما كما ان الظروف موجودة وحقيقية . .

ولكن ما هى الارادة ؟ . .

لا توجد كلمة تصفها أو تشرحها . . لأنها اكبر من كل الكلمات ولأنها تحتوى على كل الكلمات وتتجاوزها . . فكل وصف يبدو حيالها ناقصاً . انها كالشوق لا يوصف وانما يكابد . .

انها تنطبق عليها كلمة المتصوف الصالح ابو البركات البغدادى : اظهر من كل ظاهر واخفى من كل خفى . .

ان احسن طريق لمعرفتها هى ان تباشرها . . فهى المفتاح السحرى الذى تفتح به الكون كله . .

ولكن هناك أسئلة تتوارد على خاطرنا . .

هل الارادة موجودة فى الزمان . .

هل هى تنبض مثل القلب . .

هل تنمو مثل الجسد . .

هل تتعاقب مثل اللحظات . . وتنقضى مثل الحالات النفسية

هل تسرى مثل الضوء والكهرباء وتنتقل كما تنتقل الحرارة . .

وهى اسئلة تفتح علينا الباب على مشكلة اخرى هى . . الزمان . .

ما هو الزمان ؟ . .

هل هو حركة عقرب الثوانى والدقائق والساعات ؟ . .

هل هو دقات ساعة الجامعة ؟

هل هو الارقام العامة التى تنشرها مصلحة الارصاد عن توقيت الايام والليالى وساعات الظهر والمغرب والعشاء . .

أم هو زمن آخر خاص يعيشه كل واحد منا فى نفسه ويضبط عليه وجوده . .

اننا بهذه الاسئلة نبلغ المنطقة التى يكثر فيها الضباب وتصعب الرؤية . .

إنها تحملنا إلى تحت

انها تنزل بنا من الأوراق الى الساق الى الجذر . . الى ما تحت الخشب واللحاء . . الى العصارة التى تصعد فى نباتنا فتبعث فيه الحياة . . .

اننا ننفض يدنا من تشريح الايدى والارجل ونبدأ فى بحث الحركة نفسها . . ونكف عن قياس قوة العضلات لنبحث فى الارادة ذاتها . . لاننا فى غرفة الموتور حيث انبوبة الاحتراق التى تبعث كل الطاقة . . .

وهنا تتصادم الافكار والنظريات والمذاهب فى الظلام . .

الزمن

ان دقات ساعة الحائط تقـدم لك زمنا مزيفا . . ابحث عن زمنك الحقيقى فى دقات قلبك .. ونبض احساسك . .

كل شيء فى الدنيا يجرى ويلهث . .
الشمس تشرق وتغرب . .
والنجوم تدور فى أفلاكها . .
والأرض تدور حول نفسها . .
والرياح تهب فى الجهات الأربع . .
والسيول تنهمر من أعلى الجبال . .
والينابيع تنفجر من باطن الأرض . .
والنبات والحيوان والانسان تعيش كلها فى حركة دائبة ..
وذرات الجماد تهرول فى مداراتها . .

وظاهرات الطبيعة كلها عبارة عن حركة . . الكهرباء حركة . . والصوت حركة . . والضوء حركة . . والحرارة حركة .. والكون كله يتمدد مثل فقاعة من الصابون وينفجر فى كل قطر من الفضاء . .

المادة فى حالة انتشار وذبذبة وحركة ولهذا يقول اينشتين ان لها بعدا رابعا غير الأبعاد الثلاثة المعروفة . . هذا البعد هو الزمن . . أو الزمن الملتصق بالمكان ويسميه الزمكان .

المادة مثل حيوان له طول وعرض وسمك وعمر . . والعمر يدخل فى تركيبها . . كما يدخل فى تركيب الحيوان . .
الزمن إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج المادة . .

وهو أيضا إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج الكائن الحى .

* * *

ولكن ما الزمن .

هل هو دقات ساعة الجامعة . . والنتيجة المعلقة بالحائط والتقويم الفلكى بالفصول والأيام . .

اننا ما زلنا نذكر كلمات المراقب ونحن نؤدى الامتحان فى آخر كل سنة . .

باقى على الزمن نصف ساعة . .

نذكر الرجفة التى كنا نحس بها ونحن ننظر الى ورقة الاجابة والى ورقة الأسئلة . . والى الساعة فى يد المراقب . . والى شفتيه وهما تنطقان . .

باقى على الزمن نصف ساعة . .

كأنه ينطق حكما بالاعدام . . أو حكما بالافراج . .

كان النصف ساعة عند بعضنا قصيرا جدا . . أقصر من

نصف دقيقة . . لأن ورقة الاجابة ما زالت بيضاء أمامه . . ولأنه ما زال يبحث . . ويهرش فى رأسه . .

وكان عند بعضنا الآخر طويلا مملا . . أطول من نصف يوم . . لأنه قد انتهى من الاجابة .

كانت الساعة فى يد المراقب تشير الى زمن واحد . . ولكن كلا منا كان له زمن خاص به .

كان معيار الدقائق عند كل منا يختلف عن الآخر . .

وهذا هو مفتاح اللغز . .

* * *

ان الزمن ليس شيئا منعزلا عنا مثل الشجرة والمحبرة والكتاب . . ليس زمنلكا تحتويه ساعة اليد . . ولكنه شىء يلابسنا لكل منا زمن خاص به .

عواطفنا واهتماماتنا هى الساعة الحقيقية التى تضبط الزمن وتطيله أو تقصره .

أفراحنا تجعل ساعاتنا لحظات .

وآلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريرة ثقيلة مثل السنين وأطول .

احساسنا بالسرعة والبطء ليس مصدره ساعة الحائط ولكن مصدره الحقيقى الشعور فى داخلنا .

ان ساعة الحائط تقدم لنا زمنا مزيفا . . ومثلها التقويم الفلكى الذى يقسم حياتنا الى أيام وشهور وفصول .

والتاريخ الذى يقسم أعمارنا إلى ماض وحاضر ومستقبل . .

لأن حياتنا غير قابلة للقسمة . . ولأن الزمن فى داخلنا غير قابل للقسمة أيضا . .

ان حياتنا لحظة طويلة مستمرة يصاحبها احساس مستمر بالحضور ونحن نتعرف على الماضى من خلال هذا الحاضر . . فحينما نعيش فى احساس بالتذكر نسميه ماضيا . . وحينما نعيش فى احساس بالتوقع نسميه مستقبلا . . ولكن كل هذه الاحساسات هى حاضر .

والفواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل فواصل وهمية لأن اللحظات الثلاث تتداخل بعضها فى بعض كما يتداخل الليل والنهار عند الافق . .

والذى يقوم بتعيين اللحظة فى الشعور هو الانتباه . .

الانتباه هو الذى يضع خطا تحت بعض مشاعرنا واحساساتنا فيخيل لنا أننا وقفنا لحظة والحقيقة أنه لا وقوف أبدا . . وإنما نحن نعيش فى حالة تدفق داخلى مستمر أبدا ودائما .

والزمن الخارجى . . زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوى بين اللحظات ويجعلها مجرد أرقام على مينا . .

الساعة واحدة . . الساعة اثنين . . الساعة ثلاثة . . مجرد حركة من العقرب . . وانتقال بضعة سنتيمترات على المينا . . أنه ليس زمانا ولكنه أوضاع مختلفة فى المكان . . أما الزمن الحقيقى فهو داخلنا . . وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى . . لحظة صغيرة . . ولحظة كبيرة . . ولحظة تافهة . .

وهو غير قابل للتكرار . . لأن كل لحظة تحتوى على الماضى كله ومعه علاوة من الحاضر . . وفى كل لحظة تضاف علاوة جديدة من التجربة والحياة فلا تعود الحياة قابلة لأى تكرار . . وإنما هى تعلو على الدوام مثل نهر جار يزداد فيه الماء بين لحظة وأخرى . . ولا يتشابه فيه الماء فى لحظتين متتاليتين . .

ان العالم داخلنا يختلف كثيرا عن العالم خارجنا .

ان العالم خارجنا متعدد منقسم الى أجزاء منفصلة متجاورة فى المكان . . يمكن أن نشاهد فيه وحدات متكررة . .

والعالم داخلنا شيء آخر بالمرة . .

إنه تدفق لا تتشابه فيه لحظة بأخرى ولا يتكرر فيه احساس واحد مرتين . .

ولا تتجاوز لحظاته وإنما تتابع . . وتتلاحق . . وتتداخل فى وحدة غير قابلة للقسمة هى حياتنا . .

وبهذا يكون هناك زمانان . .

زمن نراه من الخارج على هيئة شروق وغروب وعصر وظهر . . وساعات ودقائق . .

وزمن آخر نشعر به من الداخل على شكل تدفق يتصف بالدوام والاستمرار والاتصال . .

ونحن نرى الزمن الخارجى بالعقل وندركه بالتحليل والقياس والحساب ونعبر عنه بواسطة الارقام . .

وندرك الزمن الداخلى مباشرة وبدون واسطة . . على

شكل مكاشفة داخلية لكياننا . .

لذلك نقول عن الزمن الداخلى أنه الزمن الحقيقى لأن الحقيقة تطالعنا فيه عارية بدون وساطة وبدون رموز . .

وهذا النوع من الاحساس يشبه احساسنا بالحركة . . حينما نحرك ذراعنا فنحس أننا نحركه الى فوق بدون حاجة الى أن نراه . . لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة الرؤية . .

بينما يحتاج الذى يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنا بعينيه ويتبعها ويحللها بعقله ليقول أننا نحرك ذراعنا الى فوق ..

ومعرفتنا نحن أرقى من معرفته لأننا تعاين الحقيقة مباشرة.

وبهذه المعرفة اكتشفنا الزمن .. زمننا الحقيقى .

ولكننا لا نعيش حياتنا كلها فى الزمن الحقيقى لأننا لانعيش فى نفوسنا كل الوقت .. وإنما نعيش فى مجتمع .. نخرج ونختلط بالناس ونتبادل المنفعة ونتعامل ونتكلم ونأخذ ونعطى ..

ولهذا لا نجد مفرا من الخضوع للزمن الآخر .. زمن الساعات .. فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بأمكنة .

ونبحث عن الأشياء المشتركة بيننا لنتفاهم .. وفى أثناء بحثنا عن الأشياء المشتركة تضيع منا الأشياء الاصيلة .

العرف والتقاليد والأفكار الجاهزة تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التى تحتوى على سرنا وحقيقتنا ..

ونمضي في زحام الناس وقد لبسنا لهم نفسا مستعارة من التقاليد والعادات لنعجبهم ..

وتتكون عندنا بمضي الزمن ذات اجتماعية تعيش بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عامة لا شخصية ..

وهذه الذات سطحية ثرثارة تقضي وقتها في التعازي والتهاني والمجاملات والمعايدات والسخافات وتنفق حياتها في علاقات سطحية تشبه المواصلات المادية التي توصل من الباب الى الباب ولا توصل من القلب الى القلب .

وهذه الذات التافهة هي غير الذات العميقة التي نغوص اليها في ساعات وحدتنا ونكتشف فيها أنفسنا ونتعرف على وجوهنا الحقيقية ..

انها ذات جامدة مثل الجسد تحكمها الغرائز والضرورات الاجتماعية ..

وهي تشبه المرحاض النفساني نفرز فيه كسلنا وضيقنا ومللنا ونقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة تافهة مثل قزقزة اللب ولعب الطاولة .. ونحن نتأرجح في حياتنا بين هذه الذات السطحية وبين الذات العميقة .. نهبط مرة وتعلو مرة .. تعيش في زمن الساعات لفترة طويلة من يومنا في وظائف وأعمال آلية روتينية .. ونعيش في لحظات قليلة متألقة في زمننا الحقيقي الجياش فنهتز بالنشوة وتشرق بالسعادة ونرتجف بالقلق ونمتلىء بالفضول ونفوة اللذ ونعوف سبنا على حقيقتها وبكارتها ..

ونحن نكتشف هذه النفوس البكر فى مغامرات قليلة ..

نكتشفها لأول مرة فى مغامرة الحب حينما نعثر على المرأة التى تهز وجودنا .. وتخترقنا .. وتخترق عادتنا وتفكيرنا وحياتنا وتقلبها رأسا على عقب .. فتبدو كأنها حياة جديدة عجيبة ..

ونكتشفها لثانى مرة فى مغامرة الفن .. فى لحظة الإلهام التى ينفتح فيها شعورنا على ادراك جديد وتصوير جديد للدنيا .. فنكتب أو نغنى أو نرسم أو نقول شعرا ..

ونكتشفها لثالث مرة فى مغامرة التأمل وفى الشعور العميق بالتدين .. فى لحظة الجلاء الفكرى والصوفى التى نضع يدنا فيها على حقيقة جديدة فينا أو فى الناس حولنا أو فى الدنيا ..

ونكتشفها لرابع مرة فى المعمل .. فى لحظة الاختراع التى نعثر فيها على سر من أسرار الطبيعة يبهرنا ويدهشنا . ويصدمنا .

كل هذه الاكتشافات تخرجنا من الزمن المتبذل المتكرر .. زمن الساعات .. وتنزل بنـــا إلى أعماقنا .. إلى زمننا الحقيقى حيث كل شيء جديد مبتكر .. مدهش .. جميل .. باعث لأقصى اللذة والفضول ..

●

الحب

الشهوة تكشف لك عن نوعك عن ذكورتك .. والحب يكشف لك عن نفسك .. عن ذاتك .. والملل من الاثنين هو الاشعار الخفى الذى ياخذ بيدك الى محبوبك الحقيقى

أحبك . .

كلمة لذيذة تصيبنا بالخدر والدوار ..

كل شيء فينا يذوب ويتفتت حتى اللغة نفسها تذوب والزمن يذوب والمكان يذوب والعقل يذوب والقلب يذوب .. ونحن ننطقهـــا ..

* * *

اللغة تتعطل فى لحظة الحب ويحل محلها سكوت ناطق معبر ..
والزمان والمكان يتلاشـــيان فى غيبوبة صاحية تكف فيها

اللحظات عن التداعى وتنصهر فى إحساس عميق بالنشوة والنصر والفــرح ..

قد تكون هذه النشوة لحظة واحدة .. ولكن هذه اللحظة تصبح كالأبد ..

الحب يؤبدها فتستمر ماثلة أمام الشعور .. تستمر فى المستقبل لسنوات طويلة تلاحق صاحبها وقد ألقت ظلا طويلا على حياته .. وامتزجت بصحوه ونومه وأحلامه وهذيانه .. والتصقت به من داخله فأصبح من المستحيل عليه أن ينفضها مع ثرثرة كل يوم ومشاغله وتفاهاته ..

أصبحت بعض نفسه .. تحيا بحياته .. وتموت بمماته .

* * *

فى لحظة الحب ينفتح شيء فينا .. ليس الجسد .. بل ما هو أكثر .. بوابة الواقع كلها تنفتح على مصراعيها فتتلامس الحقائق والمعانى الجميلة والمشاعر التى يحتوى عليها الحبيبان .

ويحدث الانسجام من هــذا التماس بين الأفكار والمعانى والأحاسيس الرقيقة ..

ويخيل للاثنين فى لحظة أنهما واحد .. ويسقط آخر قناع من أقنعة الواقع .. فتذوب الأنانية التى تفصلهما .. ويصبحان مصلحة واحدة وفكرة واحدة .

ولكنها لحظة خاطفة لأن الواقع الصفيق ينسدل من جديد بين الحبيبين فيعود الهم يعزلها الواحد عن الآخر .. هم الزمن والساعة التى أزفت والميعاد الذى انتهى والوقت الذى حتم على كل منهما أن يعود إلى عمله .. وهم المكان الذى يعزلها كل واحد فى بلد .. وهم الجسد الذى يحوى كلا منهما فى كيان مستقل من اللحم والدم .. وهم المجتمع الذى يحتــوى على الاثنين ويطالبهما بالتزامات وواجبات .. وهم الماضى الذى يدخل كشريك ثقيل الظل فى كل لحظة ..

إننا لانعيش وحدنا .. بل هناك الآخرون .. وكلهم ينازعون حريتنا ولقمتنا وحياتنا ..

وفى هذا الزحام نضيع وينطمس الواقع على أحلامنا ويأخذنا معه فى دوامة من التكرار السخيف من الأكل والشرب والنوم .. لانفيق منها إلا لنغيب فيها من جديد وتمضى حياتنا فى روتين ممل لانلتقى فيه بأنفسنا أبدا .. ولانذوق الحب ولانعرفه .

وقد نتزوج ونعيش حياة بليدة هادئة .. نلتقى فيها بزوجاتنا كما نلتقى بدفاتر الحضور فى الديوان .. نوقع عليها كل ليلة لنثبت حضورنا فى الميعاد .. ونعيش حياتنا الجنسية بدون وجدان .. وتظل الزوجة فى نظرنا مجرد أنثى لقضاء الحاجة .. ممكن أن تحل محلها الخادمة أو أية امرأة بدون أن نحس أن شيئا ما ناقص أو مفقود .

* * *

ان الشهوة شيء غير الحب ..

إنها أقل من الحب بكثير .. فهي رغبة النوع وليست رغبة الفــرد ..

إنها علاقة بين طبيعتين وليست علاقة بين شخصين .. علاقة بين الذكورة والأنوثة ..

والفرد لايكتشف فيها نفسه ولكنه يكتشف نوعه وذكورته ..

والحب يحتوى على الشهوة ولكن الشهوة لاتحتوى عليه ..

بالحب لاتكتشف فقط أنك ذكر .. ولكنك تكتشف أيضاً أنك فلان وإنك اخترت فلانة بالذات ولا يمكن أن تستبدلها بأخرى..

ان كلمة «أحبك» هي أعمق وأجمل كلمة في حياة الرجل لأنها ليست مجرد كلمة وأنما هي نافذة يطل منها على حقيقته وسره ..

والحياة الخالية من الحب حياة باردة موحشة سخيفة خالية من الحماس والطعم والبهجة .. تنساب فيها الرغبات مضعضعة ميتة من الملل والضجر والفراغ ..

الحياة بلا حب .. غربة ..

والشهوة لاتسعفنا ، ولاتطفىء عطشنا ولاتعوضــنا عن الحب ..

انها وسيلة للهروب فقط نبدد بها نشاطنا ونتخلص منه .

انها مثل الخمر والقمار والمخدرات وسيلة للاغماء والإعياء والبـــلادة ..

* * *

والشيء الوحيد الذى يستطيع أن يحل محل الحب هو الفن .. لأنه ينفذ إلى القلب مثله .. ويكشف مثله عن ذاتنـــا العميقة .. ويوصلنا إلى اللحظات الأبدية المليئة .. ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنـــا ..

وما يبدعه الإنسان من فنون خالدة يدل على أنه يحتوى على بذرة الخلود فى داخله .

وما يعيشه من لحظات أبدية يدل على أنه يحتوى على الأبدية فى قلبـــه .

* * *

والحب الذى هو أعمق من كل حب لايفجره فى القلب إلا التصوف والشعور الدينى .. لأن الدين هو الذى يعيد الإنسان إلى النبع الذى صدر منه ويأخذ بالإنسان الساقط فى الزمان والمكان ليرفعه إلى سماوات الأبدية ولايرفعه إلى هذه السماوات إلا الحب .. منتهى الحب الذى يفنى به العابد عن نفسه وعن الدنيا شوقا إلى خالقـــه .

وما حب الإنسان للمرأة .. وما حب الإنسان للفن .. وما حب الإنسان للجمال .. إلا خطوات الدليل الخفى الذى يقودنـــا إلى

الله .. إلى المحبوب الوحيد الذى يستحق الحب .. انها محطات سفر إلى المحطة النهائية .. محطة الوصول ..

مرة بعد مرة يكتشف الإنسان أن موضوعات حبه لاتملك وجودا حقيقيا .. فالوردة تذبل والشمس تغرب والمرأة تشيخ والجديد فى الفن يبلى .

وما رآه فى المرأة جمالا يكتشف أنها لاتملكه وأنه يزايلها بالشيخوخة .. إنه لم يكن جمالها .. لقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها ..

وتبرد الشهوة ..

وتفتر العاطفة ..

ويتجه الرجل بحبه إلى امرأة أخرى لتتجدد الخيبة ويتجدد الملل ويتجدد الضجر ..

لا .. إن حبه أكبر من أن تستوعبه ذراعان .

إن حبـــه يعبر به الغايات المحدودة ويتجاوزها إلى قيم الفن والجمال والخير والعدالة والحقيقة .

وهو على عتبة هذه المجردات يكتشف أنه يريد الله بكل حبه فهو الواحد الذى تتجسد فيه كل هذه القيم اللانهائية .

هو اللامحدود فى مقابل المحدود .

ها هو أخيراً يجد الجواب على السؤال اللغز الذى طالما حيره.

لماذا خلقت . . لماذا وجدت فى هذه الدنيا ..

هو الآن يعرف لماذا خلق .

ليحصل إلى حقيقية نفسه .. وليدرك إلهه .

وما أرض الواقع إلا المزرعة التى يلقى فيها بامكانياته لتورق ولتثمر وتتحقق .. تلك الإمكانيات الباطنة فيه بطون جنين القمح فى بذرة القمح .

وهو يرى نفسه كارادة هائلة تتخبط فى سروال ضيق من الجلد واللحم لايسمح له إلا بالسير البطىء خطوة خطوة والحياة بالقسط لحظة بلحظة .. وفى كل خطوة من خطواته وفى كل لحظة من لحظاته يترك بأعماله أثراً يدل عليه .

وهو كل يوم يملأ ورقة الإمتحان ويجيب عن الأسئلة الأزلية

من أنت

ماذا تريد أن تقول

ماذا تريد أن تفعل

ماذا تخفى فى قلبك .

ليكشف عن مكنونه ويحقق ذاته

ويقوده حبه لنفسه وحبه للمرأة وحبه للجاه والسلطان إلى يأس بعد يأس وملل بعد ملل واحباط بعد احباط حتى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق .. إلى الواحد الأحد الذى تجتمع فيه كل الكمالات .

ويزداد حبه عمقاً ليصبح عبادة وصلاة .. وهو يصعد فى طريق العودة إلى منبع الأنوار ..

وهو الآن يشعر أنه وجد نفسه حقا وعرف الهه وعرف هدفه وعرف طريقه .

وهو يدرك أن كل ما عاناه من عذاب وألم واحباط ويأس لم يذهب عبثا .. فقد كانت كل تلك الآلام هى المؤشرات التى كشفت له طريقه ودلته على حقيقته .. كانت بوصلته ودليله فى بحر الظلمـــات .

ومن أجل هذا خلق الله الحياة ..

ان الإنسان معجزة المتناقضات .

إنه فان ويحتوى على خالد .

وميت ويشتمل على حى .

وعبد ويحتضن قلبا حراً .

وزمنى ويحتوى على الأبدية .

وحبه وفنه وتفكيره وصحته ومرضه وجسده وتشريحه تدل كلها على هذا التركيب المتناقض .

الدنيا كلها تقيده وجسده يقيده مثل الجاكتة الجبس .. ومع ذلك .. لاتمنعه هذه القيود من أن يضمر فى نفسه شيئا .. وأن يفرض هذا الشىء على ظروفه .

فهو يصهر الحديد ويسوى الجبال بالأرض ويشق الانفاق

ويطلق قذيفة من عدة أطنان إلى القمر .. كل هذا وهو جسم صغير هلامى من اللحم والدم ..

وهو يرقد مريضا مشلولا يائسا .. فاذا اجتمع بزوجته أنجب طفلا يرقص من الصحة والعافية ..

أين كانت هذه الصحة مختفية فى المرض ..

وهو يبدو ضعيفا قليل الحيلة .. تقتله رصاصة بمليم .. تماما مثل الرصاصة التى تقتل الكلب .. ولكنه مع هذا يستطيع أن يطلق من فهمه قبل أن يموت صيحة يهدم بها نظاما بأسره ..

من أين يخرج صوته .. وينساب تفكيره .. وينصب شعوره .. وتتدفق قواه غير المحدودة ..

إن أعضاءه تبدو فى التشريح من مادة تقبل الوزن والقياس.. وتخضع للزمن ..

ولكن شعوره يكشف عن مادة أخرى وزمن آخر يعيش فيه غير زمن الساعات والدقائق .. زمن حر يقصر ويطول حسب ارداتـــه ..

وتعمق هذا الشعور فى لحظات الحب والإلهام والتصوف .. يكشف عن حقيقة أغرب ..

أن هناك أفقاً ثالثا فى داخله ..

أفقاً غير زمنى .. لحظاته أبدية مليئة .. لاتنقضى مثــل اللحظات وإنما تظل شاخصة فى الشعور مالئة للوجدان ..

ماذا تكون تلك اللحظات ..

أتكون هى الثقوب التى تطل على سره ؟؟

وماذا يكون سره الخافى تحتها ..

أهو الروح ؟ ! ! ..

وما الروح ؟ ! ! ..

انها الحرية ..

الحرية جوهر الإنسان وروحه .. ومن خلال محاولتنا لفهم الحرية سوف نقترب من فهم الروح ..

●

الخيط

القشة في البحر يحركها التيار
والغصن على الشجرة تحركه الريح
والانسان وحده .. هو الذى
تحركه ارادته ..

أجمل مافى الدنيا أنها واضحة .. تغمرها الشمس .. كل شيء فيها يمكنك أن تراه وتسمعه وتزنه وتقيسه وتتذوقه وتحلله وتستنتجه ..

كل ما يحدث فيها له سبب .. وإذا عرفت سببه استطعت إحداثه .. كل شيء يجرى بنظام محكم من الأسباب والنتائج .. وإذا كان لديك ورقة وقلم فانك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب .. لأنها تتحرك حسب قانون ..

وكل شيء فى الدنيا يتحرك حسب قانون ..

إلا الإنسان .. فانه يشعر أنه يمشي على كيفه .

الإنسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه .. ويستحيل فى أية لحظة أن تتنبأ بمصيره ..

ان ما يحدث داخل الإنسان وفى قلبه لا يخضع لقانون .. لا توجد هذه الحلقات المترابطة من الأسباب والنتائج فى داخل نفوسنا .

اننا نرغب .. ونتحمس .. ونعمل ولكن هذه السلسلة من الرغبة والحماس والعمل لاتتبع الوحدة الأخرى حتما .. وإنما يظل الإنسان قادرا على التملص فى أية لحظة .. فاذا تراءى له أن يصرف النظر .. فان رغبته تموت وحماسه يبرد ولايتسلسل إلى غايتــــه ..

والسبب ؟ ..

لايوجد سبب ..

انه لم يعد يريد ..

ولماذا لم يعد يريد ..

كــــده ..

هو ببساطة لم يعد يريد ..

ان مجرد ارادته سبب .. فى غير حاجة إلى سبب ..

وهــــذه الحرية .. وهذا التملص من الـ .. لابد .. واللازم والضرورى .. لايوجد فى أى مكان فى الدنيا إلا فى الإنسان ..

إنه وحده الذى يخلق نفسه بنفسه .. ويولد كل يوم ميلاداً جديداً .. ويتطور ويتكون .. وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات ..

ان ارادته تدخل على كل لحظة فتعدلها وتخل بأى تعاقد طالما أنها أرادت هذا الإخلال ..

ولهذا يستحيل التنبؤ .. لأن لكل لحظة تبدو جديدة غير متعاقدة بسابقتها .

لاشىء يحول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئا فى نفسه ..

إنه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية أحلامه ..

* * *

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة فى الداخل ماتلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة فى لحظة الفعل . .

ان رغبتنا تظل حرة طالما هى فى الضمير والنية ..

نستطيع أن نرغب أى رغبة .. ونحلم أى حلم .. ونتمنى أية أمنية . . ولكن المأساة تبدأ فى لحظة التنفيذ حينما تحاول رغباتنا أن تحقق نفسها فى الواقع .. فتصطدم بالقيود .. وأول قيد نصطدم به هو الجسد .. جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس .. ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولانجد مهربا من تلبية هذه المطالب .. فنجرى خلف

اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا ..

وليس أمامنا حل غير هذا فرغباتنا لاتستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد ..

وجسدنا هو أداة حريتنا .. وان كان يقيد هذه الحرية فى نفس الوقت ..

وليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضاً أدواتنا ..

فنحن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم .

ان المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف.

وحينما يركب أحدنا قطارا فانه يركب فى نفس الوقت على حرية جاهزة أعدها له آلاف العمال والمخترعين والمهندسين فى سنين تاريخية طويلة .. وهو يدفع فى مقابل هذا الكسب ضريبة من حريتـــه .

وليس المجتمع وحده هو الذى يتقاضاه ضرائب .. ولكن الكون كله .. جاذبية الأرض .. وضغط الهواء .. ومياه المحيطات والغابات بحيواناتها وطيورها والسماء بكواكبها .. كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها .

وهو بالوفاق يربح حريته دائما ..

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد ..

فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح .. ويضع شراعه فى مواجهته يمتطى الريح ويسخره لخدمته .

وحينما يفطن إلى أن الخشب أخف من الماء .. ويصنع مركبا من الخشب .. يمتطى الماء .. وبالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس ويسير فى اتجاههم .. يكسب الناس ويكسب معونتهم ..

ان المجتمع يضغط على الفرد وعلى حريته .. والدنيا تضغط على الفرد وعلى حريته .. ولكن العقل يستطيع دائما أن يقلب هذا الضغط إلى مصلحة ومنفعة وحرية .. بأن يكتشف ببصيرته القوانين التى تربط الأشياء بعضها ببعض .

* * *

ان الإنسان يعيش مضطربا بين عالمين . . عالم رغباته ونزواته وكلها حرة طائشة بلا حدود .. وعالم المادة حوله وهى جامدة محدودة مغلولة فى القوانين ..

وسبيله الوحيدة هى معرفة هذه القوانين .

حريته لاتستطيع أن تشق طريقها بدون العلم .. انها بدون العلم .. تكون مجرد رغبة مجنونة فى داخله .. مجرد نية .. وحلم وأمل سجين . .

مجرد حرية وجودية تصلح مادة لقصة أوقصيدة أو أغنية أو

تمثال .. أو مغامرة .. أو جريمة قتل .. ولكنها لاتصلح لكسب حقيقي واقعي .

ان الفرق بين العبودية والحرية هو خيط رفيع . خيط رفيع يرقص عليه الإنسان .. ويتأرجح .

إذا سقط فى داخل نفسه ضاع فى أحلال اليقظة والرؤيا والأمـــانى .

وإذا سقط فى العالم ضاع فى دوامة الزمن الآلى .. وجرفه الروتين والعرف والتقاليد .. وابتلعه المجتمع فى جوفه .

وإذا فتح عينيه ونظر إلى العالم حوله فانه يستطيع النجاة بحريته . ويستطيع أن يقفز على الحبل خطوات واسعة إلىالأمام ..

ان طريقه ضيقة محفوفة بالمخاطر .. والموت يترصـــده من كل جانب .

ان عليه أن يدرس الواقع حوله بما فيه من منخفضاتومرتفعات ومطبات . . ويكتشف ما فيه من قوى . . ويتعرف الطريق إلى قيادتها والاستفادة منها . .

ان الخيط الذى يسير عليه هو خيط ضيق من الواقع .. يحف به العالم من ناحية .. وتحف به رغباته الطائشة من ناحية أخرى ..

ولو دخل فى نفسه ولاذ برغباته وأحلامه وانطوى على ذاته فانه يموت كما تموت الوردة التى تنفصل عن شجرتها .. وتستعبده شهوته وتسجنه غرائزه ..

وإذ ذاب فى المجتمع وخضع للناس خضوع الشاة .. فانه يموت ويفقد شخصيته ..

وحبل النجاة هو ذلك الخيط الرفيع .. حيث يحدث التصادم بين نفسه والعالم .. بين داخله وخارجه .. وحيث تلتحم رغباته بالدنيا .. مائة مرة كل يوم ..

حبل النجاة أن يكون ذاتيا موضوعيا فى نفس الوقت .. أن تكون عينه مفتوحة على داخله .. واعية لما يجرى حوله .. وأن يتدفق نشاطه من هذه البطارية ذات القطبين على الدوام .

بهذا وحده يفوز بنفسه « ويفوز بالعالم » ويصبح انسانا حرا ..

* * *

ولكن هل يفوز بحريته بحق وبلا حدود .. ألا توجد سلطة عليه غير ظروفه ..

هل يستطيع أن يقول أنه مخير وأنه لاتوجد قوة أعلى منه ترسم له مصيره وقدره .

أم أن حريته فى غايتها هى حرية بشرية محددة نسبية ..

وأين يكون مكاننا من المشكلة الأزلية .. بين .. المخير .. والمسير ..

مسير أم مخير

الانسان مخير فيما يعلم ..
مسير فيما لا يعلم

سؤال شائك محير :

هل أنا مخير أم مسير ؟

شعورى يقول فى كل لحظة انى حر :

وواقعى يكشف لى فى كل لحظة الف لون ولون من ألوان الجبر والقهر .

أين أنا فى هذه المشكلة .

هل أنا الذى اختار حياتى :

أم أن حياتى هى التى تختار لى :

تعودت دائما كلما تناولت هذه المشكلة فى مقال أن اختار جانب الحرية .. وكانت خطابات القراء تنهال على فى كل مرة فى سيل من الاحتجاجات :

ولهذا فكرت أن أدخل إلى الموضوع هذه المرة بطريقة جدلية .. وان أجعله فى صورة حو ارسقراطى فأبدا بالاشكال كما يتصوره القراء فى خطاباتهم وتساؤلاتهم ثم اتخذ من تساؤلاتهم مدخلا إلى الموضوع لأكون أقرب مايمكن إلى عقل القارىء العام وتصوراته .

* * *

يقول القارىء أحمد ناجى شرف الدين تعليقاً على مقالى فى خطاب طويل :

.. ستة آلاف يوما عشتها ولا أدرى لم أعيش .. وإلى أين أســير .

ثلاثة وعشرون عاما عشتها وأنا أمثل رواية الأبدية .. صحو .. منام .. شرب .. طعام .. صمت .. كلام .. وداد وخصام والأيام تكر .. والسنون تمر .. والعمر يمضى دون أن أعرف من أنا .. ولماذا أتيت .. وإلى أين أسير ..

إنى أجرى وراء المستقبل .. وأمنى النفس بالآمال .. ففى المستقبل أبلغ آمالى .. وفيه أصلح نفسى .. وفيه أنيب إلى ربى ... وفيه أكتب تلك المعانى التى طالما جاشت بها نفسى .. ولكن المستقبل لايأتى أبدا .. وحينما يأتى يصير حاضراً وأبدأ فى التفتيش عن مستقبل آخر .

حينما كنت فى الابتدائية كنت أتمنى أن أصبح تلميذاً فى

الثانوية أرتدى البنطلون الطويل وأصفف شعرى واحتفظ بقطع الطباشير الميرى لألقيها على أطفال مدرسة الروضة التى تجاور مدرستنا كما كان يفعل معى طلبة المدرسة الثانوية المجاورة .. ويوم وصلت إلى هذا الأمل هان على وذهب بهاؤه وانطفأت روعته وبدأت أنظر إلى مستقبل آخر وأصبحت أتمنى أن أكون موظفا فى الحكومة مثل سيد أفندى الذى يسكن عند خالى وأتأبط الجريدة اليومية وأناقش فى السياسة الدولية وأجلس واضعا رجلا على رجل وألعب الطاولة .. قد كان .. إذ ماكادت سنوات أربع تمر حتى كنت موظفا بالحكومة .. وذقت تلك المرارة التى يشعر بها الموظف والتى كان يخفيها سيد افندى تحت جاكتته وابتسامته المفتعلة .. وهان على الأمر مرة أخرى وذهب بهاؤه وتغير حالى بانتقالى من عالمى الساذج إلى دنيا الوظيفة بما فيها من تملق ونفاق وكذب .

وجاء أول الشهر لأقبض أول مرتب .. سبعة جنيهات .. وكنت حينذاك فى أسيوط على بعد مئات الأميال من بلدى .. وبدأت أشعر بضيق الحياة .. وتبددت آمالى ..

لم أتمكن من الجلوس على مقهى .. ولم أتمكن من تهيئة وقت للمذاكرة . وأصبح التحاقى بالجامعة استحالة .

وضاقت حرياتى حتى كادت تنعدم ولم يبق منها إلا حرية الحصول على خبز اليوم اتبلغ به لأعيش يوما آخر.

أين الحرية التى تتشدق بها وتملأ بها مقالاتك .

هل أنا حر ... وكيف .. وأنا ألا أكاد أملك إلا الكفاف ولا أصلح إلا لمشوار واحد من الديوان إلى البيت ومن البيت إلى الديوان ..

كيف أتزوج وكيف أعيش وكيف أستمر فى تعليمى وكيف أحفظ صحتى ... وكيف أوفر كل هذه الحريات وليس لدى إمكانيات .

انى لا أملك إلا حرية واحدة هى حرية قتل نفسى إذا كنت تظن أن هذه حرية ..

* * *

ويكتب سمير زكى سوريال بحقوق القاهرة قائلا :

إذا كنا أحرارا فما معنى القانون والأخلاق والأديان والمدنية

ان كل هذه الأشياء قيود على حرياتنا ..

ان القانون يمنعنى من أشياء ..

والأخلاق تحرم على أشياء أخرى ..

والأديان تخيفنى من أشياء ثالثة وتقيدنى بضوابط وأوامر ومنـــاهى ..

والمدنية تربطنى بعجلة الأسرة والبيت والمصنع والآلة ..

وتضبطنى كالساعة على مواعيد أنام فيها وأصحو.

ان الحياة حولنا قيود فى قيود ..

أين الحرية التى تتكلم عنها ..

* * *

ويتحدانى محمد عبد القادر قائلا :

أين هى حريتك .

هل اخترت مولدك .

هل اخترت أباك وأمك ودينك ووطنك .

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك .

هل اخترت النظام الاقتصادى الذى تعيش فيه .

* * *

ويكتب عبد الرؤوف . . ليسانس فلسفة بحثا يقول فيه :

انى أكون حراً عندما أكون أنا الله .. أو حينما أكون أنا العالم .. حيث لايوجد شيء سواى أخضع له وأتقيد به .

ان الحرية الكاملة تستلزم عدم وجود شيء غيرى لأن أى شيء يحدنى .. الناس .. والطبيعة .. والظروف .. كلها حدود .. ومثل هذه الحرية مستحيلة .

وإذن فأنا لست حراً إلا بقدر ما عندى من وسائل تحقيق هذه الحريـــة .

ان حريتى مشلولة وناقصة .

* * *

وينتهى عبد الفتاح سليم إلى أنه مسير مقهور على حاله وأفعاله ، ثم يسأل كيف يكون مسيراً ومقهورا ومجبورا بهذه

الكيفية ويحاسبه الله ويعاقبه أو يكافئه ويجزيه .. أين وجه العدالة الإلهية فى القضية .

* * *

أما أحمد الألفى فينتهى إلى أنه حر ولكنه يتساءل كيف يكون حرا ويتدخل الله لنجدته .. ألا يكون فى هذا التدخل اخلال بحريته..

كيف يمكن التوفيق بين فكرة الحرية وفكرة العناية والتدخل الإلهى .

كيف نكون أحرارا وكل مانفعله بأمر الله .. قدره علينا منذ الأزل .. هو الذى خلقنا وخلق أفعالنا وهو الوحيد الذى يفعل .. لا اله إلا هو وما نحن إلا أدوات ارادته .

* * *

وبهذه الخطابات والتساؤلات يحيط القراء بكل جوانب المشكلة الأزلية .. مشكلة المخير والمسير .

وهم يحشدون أسلحتهم ضدى ويشحذون أدمغتهم .. ، ويصرخون فى وجهى فى صوت واحد .

هذا وحده أول دليل على حريتهم فقد صنع كل واحد منهم رأيا مستقلا ولم يتقيد بكتبى ولامقالاتى ولم يخضع لوجهة نظرى .

وأنتقل إلى اعتراضاتهم فأقول أن أغلبها يدور حول نقطة واحدة .. هى القيود المضروبة حولنا .

وبعض هذه القيود تصل الينا بالوراثة مثل الاسم والجنس والدين والوطن فنولد بها كما نولد بجسمنا .

وبعضها يصل الينا من بيئتنا .. مثل الطبيعة التى نعيش فيها حرها وبردها ورعدها وميكروباتها وأمراضها وناسها .

وبعضها من صنعنا وابتكارنا مثل القوانين والأخلاق والنظم السياسية .

وجميعها فى النهاية تقيدنا فلا يبقى لنا إلا القليل أوما دون القليـــل .

وهذا ما يجعل القارىء عبد الرؤوف يقول :

ان الحرية مستحيلة .. وانها إذا كانت ممكنة فليس لها إلا طريق واحد . . أن يفنى كل شىء حولنا وينعدم .. وأن أصبح وحيداً منفرداً مثل الله بلا شريك وبلا آخرين معى وبلا أشياء .. ذات حرة مجردة بدون مقاومات من أى نوع .

والقارىء ينسى أن الحرية تفقد معناها بمجرد سقوط المقاومات حولها لأن انعدام المقاومات حولى وامتلاكى الكل شىء فى كل وقت معناه انتفاء كل نقص عندى ومعناه كمالى لأنى أصبح الكل فى الكل . وبالتالى تنعدم مطالبى ورغباتى لأن المطالب والرغبات منبعها احتياجاتى .

وبانعدام الرغبة والمقاومة يسقط معنى الحرية لأنها تكون استهدافا فارغا إلى لاشىء تكون هى ذاتها لاشىء .

ان مشكلة الحرية ترتبط دائما برغبة تتأجج فى الصدر ومقاومة تقف فى سبيلها .

وتتأكد الحرية بانهيار المقاومة وتراجعها أمام الإرادة ..

بهذه الصورة الجدلية تكشف الحرية عن مدلولها فى الواقع ..

أما الإنسان الأوحد المنفرد الذى تلاشت من أمامه الظروف والمقاومات وانعدم كل شيء حوله .. وأصبح هو الكل فى الكل .. واشتمل على العالم فى ذاته .. وتحول إلى اله .. ماذا يطلب هذا الكائن وأى شيء يعترض مطلبه لتصبح حريته أو عدم حريته محل سـؤال .

أين الصراع الذى تكشف الحرية مدلولها من خلاله .

انمثل هذا الكائن لايتحرك ولايرغب ولايأكل ولايشرب ولاينمو ولايكبر ولايموت ولايولد .

إنه يعيش فى سكون وأبد وعالم بلا زمان وبلا مكان وكلمة الحرية بالنسبة له هى غير الحرية التى نعرفها ونتكلم عنها فى عالمنا ..

ماذا يطلب وهو المستغنى المكتفى بذاته ..

ان الحرية التى تتداولها كلمة بشرية صرفة .. كلمة لامعنى لها إلا بوجود القيود .. بوجود المقاومات .. بوجود الظروف التى يصرخ منها القراء ويضجون ويشتكون .

ان نطلق الحتمية المضروب حولهم هو الذى يجعل لحريتهم معنى وليس هو الذى يهدمها كما يظنون .. لأن الحرية تعبر عن

نفسها باختراق الظروف وزحزحة المقاومات وهدم العقبات..

الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الإنسان ببيئته وبظروفه ويلغيها أن يصبح الناس الهة ..

ان السؤال المهم هو :

هل تذوب المقاومات مع الزمن ..

هل تتقهقر العقبات .. عقبة خلف أخرى تحت ضغط الإرادة وأسرار الإنسان أم أن كل حياتنا كالحارة السد .

والجواب نعم .. تتقهقر العقبات .. ويتقدم العلم ويتحكم فى الحر والبرد والريح والماء والهواء ويطور القوانين والأنظمة إلى أحسن وأحسن ..

وفى هذا دليل واقعى أكيد على حرية الإنسان .

* * *

اضغط على الزر الكهربائى فى غرفتك فينتشر الضوء وينهزم الظلام .

ألا تحس أن هذا الكسب العلمى البسيط أضاف إلى حريتك

ومثل هذا الكسب الوف غيره تنتفع بها فى كل لحظة .. حينما تضع رجلك فى ترام أو تدخل سينما أو تقرأ كتابا أو تتحدث فى تليفون . . .

ان كل شىء يصرخ فى أذنيك بأن الحرية حقيقة والتاريخ يلهث

جريا إلى الأمام ليؤكد لك أنك حر .. والأقمار الصناعية تهتف فى الفضاء بأن من يجتهد يصل وان الطريق مفتوح أمام ارادة البشر.

وما القدر إلا مجرد واسطة تكشف بها الحرية عن ذاتها وتؤكد وجودها ..

* * *

ويصرخ القارىء قائلا .. هل أنا حر وأنا لا أكاد أملك الكفاف.

فيثير بذلك قضية الحرية بمعناها الاجتماعى .. وكيف أنه لاحرية لمن لايملك القوت .. وأن توفير القوت فى ذات الوقت توفير حرية ..

والسؤال هو ما هذا القوت المطلوب توفيره .

أهو مائدة عليها لحم وخبز وأرز وفواكه وثلاجة لحفظ هذه الأطعمة وعربة ليقضى بها كل منا مشاويره سعيا لجمع هذا القوت.

ان كان هذا هو القوت المطلوب فان توفيره لن يكون توفيرا للحرية وإنما سيكون تبديدا لها .. ومعناه أن يكون الإنسان فى خدمة الطعام وليس الطعام فى خدمة الإنسان . . معناه تبديد الوقت والجهد والفكر لتحقيق الوفرة المادية ومعناه أن يصبح الإنسان فى النهاية عبدا لهذه الوفرة ويفقد حريته . .

أما إذا كان المقصود بالقوت هو الكفاف فان القضية صادقة فحين لاتوجد كسرة الخبز لاتوجد حرية .

ولكن إذا توفرت هذه الكسرة وهذا ميسور فالبحث عن المزيد ليس كسبا لحرية وانما اضاعة لها .

ولقد كان غاندى أكثر الناس حرية وهو يسعى حافيا على قدميه لايملك إلا مغزل صوف يدوى وكيس به بضع ثمرات وعنزة يشرب من لبنها ويصنع من صوفها ثيابه .

وكذلك كان محمد والمسيح .. والأحرار العظام الذين صنعوا لنا حرياتنا وغيروا التاريخ .

وشرط الحرية هنا هو الكفاف لأن أكثر من هذا خضوع لعبودية البطن كما أن اضاعة العمر فى الجرى وراء النساء هو خضوع لعبودية الشهوة ..

ولايحق للقارى أن يصرخ لأنه لايملك إلا الكفاف قائلا لقد فقدت حريتى .. أين حريتى ..

بل لقد وجدت حريتك ما دمت قد وجدت الكفاف .. فما يزيد على الكفاف ليس حرية بل عبودية ..

* * *

أما الاعتراض بأن الأخلاق قيود على الحرية .. والقانون قيد على الحرية والضوابط الدينية قيود على الحرية فهو غير صحيح فكل هذه الضوابط مثل اشارات المرور الأحمر والأخضر والأصفر .

وبدون اشارات المرور تتصادم العربات ويقف المرور ويفقد كل سائق حريته .

انها ضوابط هدفها اتاحة الفرصة لأكبر قدر من الحرية وليس مصادرة للحرية .. وإنما الحرية تستحيل بدونها لأن المجتمع يتحول إلى غابة ويأكل بعضه بعضا ويهلك ..

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لاعبد الغريزة التى تطيح بعقلك فى لحظات ..

وبالمثل الشجاع أكثر حرية من الجبان وأكثر حرية من المتهور.

والكريم أكثر حرية من البخيل وأكثر حرية من السفيه .

والصبور أكثر حرية من الجزوع الهلوع .

أما حرية القمار والسكر وتدخين المخدرات والتبذل الجنسى فهى ليست حريات .. إنها درجات من الانتحار واهدار الحياة وبالتالى اهدار الحرية ..

وكل اختيار ضد القانون الطبيعى ليس اختيارا وانما اهدار الاختيار .

وكلنا نعلم أننا إذا أردنا أن نزداد حرية ونحن نسبح نختار السباحة مع التيار وليس ضد التيار .

وحينما وضع الإنسان الأول مروحة فى اتجاه الريح دارت المروحة واستطاع بذلك أن يصنع طواحين هوائية يسخر فيها الطبيعة لخدمته وبذلك ازداد حرية .

وهو الآن يضع التوربينات فى مساقط المياه ويولد الكهرباء .

الحرية كانت دائما هى اكتشاف القانون الطبيعى والعمل فى اتجاهه وليس العمل ضده .

وهى بالمثل اكتشاف قوانين الجسم والنفس والروح والعمل فى اتجاهها بالأخلاق واحترام الآخرين والتدين وطاعة القوانين.

* * *

أما القارىء الذى يتحدانى قائلا :

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك ..

فانى أقول له لم أختر شكلى ولاطولى ولاعرضى .. ولا أرى هذه الأشياء قيودا على حريتى .. بل أراها على العكس أدوات حريتى .

فالجسم هوأداة الإرادة فى بلوغ أغراضها .

وهو لايكون قيدا إلا فى حالة المرض فانه يتحول إلى سجن ولكن الله أعطانا العقل لنتغلب على أمراضنا بالتداوى والجراحة ، ونحن نتقدم فى هذه الميادين كل يوم .

ويبقى بعد ذلك اللغز الأزلى .. فى علاقة الإنسان بالله .. كيف يكون الإنسان حراً وهو من أمر الله وكل مايفعله بقضائه وقدره . ثم كيف يحاسب بعد ذلك واخطاؤه مقدورة عليه .

وهو لغزالقدر الذى حثت الأديان على البعد عن الخوض فيه لأن الجواب لايمكن أن يأتى إلا مكاشفة والهاما عن طريق القلب وليس العقل .. ولأن المعول فيه على إيمان المؤمن لافلسفة الفيلسوف .. لأن العقل فيه لايجدى والفلسفة لاتنجد .

وإنما لابد أن يشف القلب وترق الحواس لترتفع الحجب ويستطيع الإنسان أن يرى بعين البصيرة وليس بعينه البشرية ويتجاوز سجن الواقع المحدود بالأسباب والمسببات ليطل على ماوراءه .

لأن الجواب الكامل يحتاج إلى معرفة علاقة الروح بخالقها وهو أمر محجوب .

ولكن هناك كلمات قليلة يمكن أن تقال كدليل طريق .

فالإنسان حر هذا صحيح ولكن حريته مخلوقة أى مقدورة عليـــه ..

وهذا أشبه بأن نقول أنه محكوم عليه بالحرية مضطر للاختيار

وهذا يضعه فى منزله بين منزلتين .

فهو ليس حراً حرية الله المطلقة .

وهو ليس مقهورا مسيراً مجبورا جبر المادة العمياء .

وحينما نقول ان النار تأكل الحطب فهذه علاقة جبرية حتمية

أى أنها لابد أن تأكل الحطب حتما فلا يمكن أن تكون مسؤولة .

والمادة كلها ترسف فى هذه الحتميات .

والإنسان ليس مسيراً بهذه الدرجة .

ولاهو حر حرية الله المطلقة .

إنما هو فى منزلة بين المنزلتين .

فهو مخير فيما يعلم ، مسير فيما لايعلم .

أو هو بكلمة أدق مخير مسير فى ذات اللحظة وهذا هو ما نسميه بالحرية البشرية ولهذا أيضاً فهو مسؤول بدرجة وليس مسؤول بشكل مطلق .

فكما أن القاضى يحكم ويدخل فى اعتباره الظروف والدواعى والمغريات والضغوط النفسية فيخفف ويشدد بناء على هذه الاعتبارات .. كذلك يحكم قاضى الأزل الذى لايخفى عليه شىء .

ولكن لن يكون الإنسان غير مسؤول. لأن مقامة ليس مقام المادة العمياء ..

والله لا يأمر الظالم أن يظلم ..

وإنما هو يعلم أنه سوف يظلم بحكم أنه محيط بكل شيء علما .

وفارق بين سبق العلم وبين الإكراه .

الله أعطانا الحرية وهو يعلم منذ الأزل ماذا سنفعله بهذه الحريـــة .

وهو يقول لنا أنه لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

ويقول لنبيه .. لا اكراه فى الدين ..

لأنه لا يتدخل ولا يحب لأحد أن يتدخل باكراه النفوس على غير طبائعها لأن ذلك يتنافى مع قدسية الحرية التى أرادها لها .

إذن الحرية حقيقة ..

ولأن هذه الحرية هى إرادة الله فهى جبر واختيار فى ذات الوقت .

وإنما تكون الرحمة الإلهية بأن تجد النفس تيسيرات من جنس طبعها «كل انسان ميسر لما خلق له » .

ولهذا لا يتنافى التدخل الإلهى مع الحرية بل يؤكدها .

ان كل نفس تجد جميع الظروف ميسرة لتفصح عن مكوناتها وتحقق ذاتها بالخير أو بالشر .. لتكون كما هى ..

أما كيف يخلق الله واحدا ليظلم كما يخلق آخر ليعادل فتفسيره

ان ارادة الله مطلقة فهو يريد المحبوب كما يريد المكروه .

ولكن قضت عدالته بعد ذلك أن يختار من يحب لما يحب وأن يختار من يكره لما يكره .. فاختار الشرير للظلم والخير للعدل .. ولو أنه اختار الشرير ليعدل والخير ليظلم .. لانقلب الميزان وهذا مستحيل فى حقه فهو الكامل فى عدالته .

هذه مجرد اشارات .. أما كمال العلم فهو من أمور البصيرة .. ومما لاتنفع فيه الكلمات العادية المبتذلة فى التعبير .

وكشف جميع جوانب اللغز وإدراك معقولية التناقض .. وكيف أن « الإنسان مخير مسير » فى ذات اللحظة .. هو رهن بالمجاهدة وانفتاح القلب وشفافية الروح وليس من علوم الكلام .

●

النوم

أنت حينما تنام .. تتحول الى شجرة ..

هناك زر كهربائى فى المخ ينطفىء فى لحظة النوم .. فيسود الظلام وتسود الغيبوبة .. وتمر الشخصية بحالة غرق ويتحول الإنسان إلى شجرة .. إلى نبات بدائى .. إلى شىء تستمر فيه الحياة على شكل وظائف .. دورة الدم تجرى .. التنفس يتردد .. الخلايا تفرز .. الأمعاء تهضم .. كل هذا يتم بطريقة تلقائية والجسد ممدد بلا حراك .. تماما مثل نبات مغروس فى الأرض تجرى فيه العصارة وتنمو الخلايا وتتنفس من أكسوجين الجو .

انها لحظة غريبة يسقط فيها الجسد فى هوة التعب والعجز . ويستحيل عليه التعبير عن روحه ومعنوياته الراقية فيأخذ أجازة .. ويعود ملايين السنين إلى الوراء .. ليعيش بطريقة بدائية كما كان يعيش النبات .. حياة مريحة لاتكلف جهدا ..

ان سر الموت يكمن فى لغز النوم .. لأن النوم هو نصف الطريق إلى الموت ، نصف الإنسان الراقى يموت أثناء النوم .. شخصيته تموت .. وعقله يموت .. ويتحول إلى كائن منحط مثل الاسفنج والطحلب يتنفس وينمو بلا وعى .. وكأنه فقد الروح .

انه يقطع نصف الطريق إلى التراب .. ويعود مليون سنة إلى الخلف ..

يعود عقله الواعى إلى ينبوعه الباطن . وتعود شخصيته الواعية إلى ينبوعها الطبيعى الذى يعمل فى غيبوبة كما تعمل العصارة فى لحاء الشجر .. ويلتقى الإنسان بخاماته الطبيعية .. بجسده وترابه ومادته والجزء اللاواعى من وجوده . .

ان الشعراء يقولون ان لحظات النهار سطحية لأن ألوان النهار البراقة تخطف الانتباه .. ولحظات الليل عميقة لأن الليل يهتك هذا الستار البراق ويفك أغلال الانتباه فيغوص فى أعماق الأشياء ..

وأنا أقول أن لحظة النعاس هى أعمق اللحظات لأنها تهتك ستارا آخر هو ستار الألفة.

النعاس يمو الألفة بينى وبين الأشياء فتبدو غريبة مدهشة مما يدعونى أحيانا إلى التساؤل .. وأنا أنظر حولى فى غرفة نومى بين النوم واليقظة .. وأهمس : أنا فين ؟ ..

انى لاأتعرف على سريرى .. ولاأتعرف على دولابى .. وتسقط الألفة تماما بينى وبين غرفتى فتبدو غريبة ..

وهذه اللحظة لحظة عميقة .. لأن العقل يخرج فيها من اطار

ظروفه ويتحرر من الألفة والتعود والأحكام العادية وينظر حوله من جديد .. ليصدر أحكاما جديدة أكثر تحررا .. والهاما .

والأنبياء كانوا يتلقون الهامهم فى هذه اللحظة .. وكان الوحى يأتيهم بين النعاس والغيبوبة ..

ونيوتن اكتشف قانون الجاذبية فى هذه اللحظة .. وهو ينظر بعين نعسانة إلى تفاحة تسقط من الشجرة .. لقد أحس أن سقوط التفاحة أمر غير مألوف .. وأن التفاحة لا تمكن أن تسقط على الأرض .. وإنما الأرض هى التى يجب أن تجذبها ..

وكل المخترعين والمؤلفين والشعراء والمفكرين .. تفتقت أذهانهم فى هذه اللحظة .. لأنها اللحظة الحرجة التى سقط فيها المألوف .. والمعتاد .. ولمعت الحياة بالدهشة .. وبرق العقل بأسئلة جديدة تماما .. لم يكن ليلقيها لو كان فى كامل يقظته .. وكامل ارتباطه بالأشياء ..

والفرق بين النبى .. والعبقرى .. فى تلك اللحظة هى مساحة الرؤيا التى تنكشف لكل واحد .

النبى يشبه جهاز تليفزيون به مليون صمام .. مساحة الرؤيا فيه شاسعة .. وقدرة استقباله كبيرة .. فهو يستطيع أن يستقبل صورا من المريخ على شاشة بانورامية عريضة لأنه مؤيد بوسائل الهيـــة .

والعبقرى هو جهاز ترانزيستور صغير يكاد يستمع إلى محطة القاهرة بصعوبة .. لأنه يعتمد على اجتهاد الخاطر الذى قد يخطىء وقد يصيب ..

ولكن الاثنين يسبحان جنبا إلى جنب فى بحر الحقائق .

* * *

والنوم فى حقيقته يقظة عميقة . تتيقظ فيه الوظائف الأصيلة .. فتنتظم دورة الدم .. ينتظم التنفس .. وينتظم الهضم .. والامتصاص والإفراز .. ويتوقف الهدم .. ويبدأ النمو والبناء ويقل الاحتراق الذى يحدث فى النهار.

وتتيقظ رغبات أكثر أصالة من رغبات النهار..

الغرائز كلها تتيقظ وتعمل .. وتنشر نشاطها فى الأحلام .. وتفضح عن نزواتها على مسرح رمزى مبهم لايستطيع فك رموزه وطلاسمه إلا صاحبه .

ويدخل النوم بعد هذا فى مرحلة أعمق .. هى النوم الثقيل .. وهى مرحلة تخلو من الإحساس تماما .. وتخلو من الأحلام أيضاً .. مرحلة من الظلام .. والعدم .. وهوة بعيدة الغور .. ومساحة مشطوبة من الحياة .. ليس فيها وعى ولا زمن .. ولامكان .. العشر ساعات تمر فيها كلمح الطرف بين غمضة العين وانتباهتها .. بدون احساس بالمدة .. وكأن خيط العمر قد انقطع فجأة .. كما يحدث حينما نقطع أشرطة التسجيل ثم نوصلها من جديد ليستمر سياق الكلام كما نريد .

السياق الزمنى فى النوم غريب .

إنه زمن آخر غير زمن الساعة .. فالحلم قد يحتوى على أحداث سنة كاملة بتفاصيلها من حب إلى زواج إلى طلاق إلى جريمة ومع هذا لايستغرق بحساب الساعة أكثر من ثانية ..

والعكس يحدث أحيانا فتمر على النائم عشر ساعات وفى ظنه أن عقرب الساعة لم يتحرك إلا دقائق معدودة ..

الزمن يتخلص من قيود الساعة أثناء النوم .. ويخضع لتقدير آخر هو تقدير المخيلة التى توسع وتضيق فيه على حسب ازدحامها بالحوادث والرغبات .

انه من صناعة النائم وخلقه .. فهو ذاتى صرف ..

النائم كالفنان الذى يؤلف قصة . يخلق زمن القصة كما يريد .. ويعيش فى قمقم خرافى من أوهامه .. يتمطى فيه ويصرخ بالرغبة التى يحبها . فى حرية مطلقة تصل إلى حد العبث .

ومعظم أحلامنا عبث فى عبث .. وأمنيات مستحيلة .. ولكننا نعيشها كما نريدها ونحن نائمون .

* * *

والنوم أرخص أنواع الحياة من حيث الكلفة .. فمقدار السكر والأكسوجين الذى يحتاجه النائم ليستمر فى الحياة أقل بكثير من المقدار الذى يحتاجه فى اليقظة .

والإنسان الذى يعيش مائة سنة بين نوم ويقظة يستطيع أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا عمل على حسابه أن ينامها كلها .

* * *

ومادة النوم رخيصة .. لأن الإنسان يقترب فيه من التراب .. ويعود إلى الآلية الكيميائية المتأصلة فى خلاياه من بداية الحياة ..

●

كيميا الحياة

بين الحياة والموت .. خيط رفيع

حينما دبت الحياة على مسرح الدنيا منذ ملايين السنين .. كان المسرح يختلف كثيراً عن حاله الآن .. كانت الأرض ساخنة والجو مثقلا بالبخار .. ولم يكن الأكسجين بهذه الكثرة وانما كان نادرا .. وكان الغاز المنتشر بكثرة هو الايدروجين والنوشادر والميثان وأول أكسيد الكربون.. وكان ومض البرق وقرقعة الرعد والضوء فوق البنفسجي والإشعاع الذرى والشحنات الكهربائية العالية لاتنقطع .. وكانت المياه تغمر مساحات واسعة فى برك ضحلة .. ولم تكن المياه صافية رائقة يطفو عليها الطحلب الأخضر كمياه الغدران الآن .. وإنما كانت مياها عكرة كثيفة كالحساء مليئة بأملاح الفسفور والكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم ، والحديد والكبريت ..

في هذا المسرح الكيميائى النشط .. بدأت الحياة .. ولهذا لابد لنا أن نتكلم قليلا فى الكيمياء .. ولابد للقارىء أن يتحمل معنا عناء رحلة فى مجاهل علم الكيمياء .. إذا أراد أن يعرف سر وجوده .

* * *

استطاعت المعامل أن تثبت أن مادة الحياة واحدة تقريبا فى كل الكائنات الحية .. وأن الفوارق بين تركيب لحم الحمار ولحم النبى آدم ولحم الحشرة ..فوارق طفيفة لاتذكر .. وأن كل المواد التى تتألف منها البنية الحية لاتخرج عن كونها سكريات ونشويات ودهنيات وبروتينيات .

وأثبتت المعامل أيضاً أن هذه المواد جميعها هى تعقيدات مختلفة لمادة واحدة هى الايدروكربون .. كل المواد الحية مشتقات من مادة هيدروكربونية .. من غاز الميثان .. وهو غاز يتألف من الكربون والايدروجين .. فما هو الشىء السحرى الذى جعل مادة الكربون بالذات هى المادة المختارة لنشأة الحياة .

السر أن هذه المادة قلقة غير مستقرة .. غير مشبعة .. فيها قابلية لانهائية للارتباط بعدد لانهائى من المركبات والمبادلة عليها بذراتها فى كل وقت . .

وقد ثبت أن المواد المستقرة التى يسمونها فى الكيمياء المواد النبيلة كالذهب والبلاتين وغاز الهليوم والأرجون والكربتون.. كل هذه المواد ظلت موادا عاطلة خاملة مثل الأمراء الخاملين .. بدأت وانتهت على حالها دون أن تعطى امكانيات جديدة .. والسبب أن ذراتها مشبعة متوازنة مستقرة لدرجة الموت .. ولهذا لم يدخل أى

واحد من هذه العناصر فى تركيب الجسم الحى . وإنما اختارت الحيـــاة مادة واحدة بعينها شديدة القلق ناقصة غير مشبعة كثيرة الانفكاك والارتباط بالمواد حولها لتكون مستقراً لها .. هى مادة الكربون لأنها مستودع لطاقة كيماوية لانهائية ومحل لتفاعلات لا آخر لهـــا ..

انها هى ذاتها فيها صفات الحياة .. الفاعلية والتحول والتكاثر والتعقد ..

ان مفتاح الحياة هو .. الكربون .. لأنه مادة جائعة غير مشبعة تنقصها أربعة الكترونات فى مدارها الذرى لتصل إلى الراحة والتوازن .. ولهذا فهى دائما تدخل فى علاقات وتفاعلات محاولة الوصول إلى هذا التوازن .. وتكون نتيجة هذه التفاعلات متتاليات كيمائية لاحصر لها .. تبدأ من غاز الميثان .. الهيدروكربون .. إلى المواد الكربوهيدراتية كالسكريات والنشويات .. إلى الجلسرين والدهون .. إلى البروتينات .

كل هذه المتتالية الحية هى تعقيد واشتقاق من مادة واحدة هى الكربون أو الفحم ..

وقد قام ميللر بتقليد ظروف الحياة الأولى فى المعمل فأحدث تفريغا كهربائيا فى جو خال من الأكسجين وبه ميثان ونشادر وبخار ماء .. فكانت النتيجة مجموعة مدهشة من المركبات العضوية تشتمل على الأحماض الأمينية .. وهى نواة البروتينات .

واختيار الحياة لعنصر الكربون بالذات لتتخذ منه الطوب الذى تبنى به معمارها اختيار فيه حكمة .. لأن الكربون عنصر نشيط ..

احتمالاته الكيميائية لاحصر لها .. وقد ثبت بالحساب أن الجزىء الذى يحتوى على عشرين ذرة من الكربون يمكنه أن يعطى مليون صورة لتركيبات جديدة .

انه عنصر مثل الحياة مفتوح على آفاق لانهائية .. ذرة تزيد وذرة تنقص فى الميثان تؤدى إلى تركيب الكلوروفورم . .الكحول .. النفتالين .. البترول . . الفينول . . الخ . . ملايين المواد الممكنة ..

وكل مادة عضوية لها تعقيدات ..

سكر القصب وسكر الفاكهة وسكر الشعير كلها تعقيدات لسكر العنب البسيط الجلوكوز ..

وزيت الزيتون وزيت بذرة القطن وزيت الفول السودانى وزيت السمك وشحم الخنزير وشحم البقــر .. كلهــا تعقيدات للجلسرين والأحماض الدهنية ..

ومادة الأظافر ومادة الجلد ومادة الشعر ومادة العظم والغضاريف والعضلات والأعصاب والدم والريش والأجنحة وقشر الحشرات وزلال البيض والهرمونات .. كلها تعقيدات واشتقاقات مختلفة من المادة البروتينية ..

وأنواع البروتينات فى جسم الإنسان تبلغ مائة ألف نوع ..

والسر فى هذا التنوع الواسع هو فى طبيعة المادة الحية نفسها ..

ان البروتينات التى تتألف من ٢٤ حامض أمينى يمكنها أن تعطى امكانيات مثل التى تعطيها حروف الهجاء الـ ٢٦ .. يمكنها أن تعطى ألوف الكلمات وملايين الجمل .. كل جملة تختلف عن الأخرى لأن تحت يدها ٢٤ حرفا كيميائيا تصنع منها تباديل وتوافيق ..

وأهم مادة حية هي البروتين لأن جزىء البروتين ثقيل فيه أكثر من خمسة آلاف ذرة فى المتوسط .. متعدد الاحتمالات لدرجة مذهلــة .

وذرات المادة البروتينية لاتعطى فقط امكانيات متعددة للتوليف الكيميائى .. ولكنها أيضاً فى التحامها تصنع أشكالا متعددة من الالتحام . فهى تكون ملضومة أحيانا على شكل مجمعات كروية وأحيانا على شكل سلاسل حزونية .. وأحيانا على شكل حبال مبرومة كأسلاك التلغراف وفى كل مرة تؤدى إلى شكل تركيبى جديد فى وظيفته وطعمه وملمسه مع أن التركيب واحد فى الكل ..

* * *

والسؤال الثانى الذى خطر ببال الكيميائيين هو الماء .. سر المــاء . .

لماذا تبدو الحياة كأنها منقوعة كلها فى الماء .

لماذا يؤلف الماء معظم النسيج الحى .. ولماذا يدخل كشرط فى كل بنية حية . .

لقد تعودنا أن نتعلم فى المدارس أن الماء سائل لاطعم له ولا لون ولارائحة . وهذه أكذوبة كبرى .. لأن الماء هو أكثر السوائل نشاطا لأن تركيبه هو الآخر تركيب قلق غير مستقر غير مشبع .

أثبت الفحص الذرى للماء أن ذرة الايدروجين فى جزيئه عارية بدون الكترونات .. ولهذا كانت شديدة الشوق إلى استعارة الكترونات من أى مادة تلامسها .. وهذا سر قدرة الماء على اذابة المواد والتفاعل معها وتحليلها إلى ايوناتها .

الماء ليس خاملا .. وليس عديم الطعم .. عديم النشاط ..
الماء توازنه الكهربائى ناقص .. ولهذا فهو يروى من العطش
إن له طعما حيويا ..

بدليل أن الماء الثقيل المشبع لايروى .. وإذا شربت منه صفيحة فانك لابد هالك عطشا .

والماء له فعل آخر .. إنه يحول مادة البروتين إلى كتل غروية جيلاتينية فى حالة تماسك كهربائى لاهو بالتجبن ولاهو بالتخثر .. وبهذا يصنع خامة حية شديدة الحساسية لتقلبات البيئة وهذه صفة أساسية فى الحياة .. شدة الحساسية وعدم الثبات والقلق والتغير والتحــول .

هذا البحث يثبت لنا فى النهاية أن مادة الحياة فيها حياة .. فيها صفات الحياة .. وأن نشأة الحياة من مركبات الكربون والماء لم تكن مصادفة .. وأن الحياة لولم تنشأ من الكربون لنشأت من الكربون .. وأن الاحتمال أكبر من أن يكون مجرد خبطة عشوائية .

إنه ضرورة ..

وهذا يجعلنا نسأل .. ما هى المادة ..

وما حقيقتها .. !! ؟

●

التراب

أن ذرة التراب ليست شيئا تافها ..
أن فيها حـركة .. وفيهـا نبض ..

هل المادة شيء جامد فعلا ؟ ! ! ..

هل هى كتلة من السكون والهمود والموت .. عديمة النشاط والفاعلية ..

ان هذه كذبة ..

وكلمة جماد نفسها أكبر كذبة ..

ان الجماد فى حقيقته غير جامد ولاحتى سائل .. إنه مخلخل من داخله ومؤلف من منظومات هائلة من الذرات والجزئيات تسبح فى فراغ أثيرى ..

والجزىء هو معمار من الذرات . . .

والذرة نفسها معمار جميل من جسميات صغيرة نووية تدور حولها كهارب غاية فى الصغر منتظمة فى أفلاك .

والذرات والجزئيات مترابطة مع بعضها بقوانين من الجذب والتنافر تشدها إلى بعضها دون أن تسمح لها بأن تصطدم ببعضها وتذوب وتفقد شكلها وشخصيتها ..

إنها كالشمس ومنظومتها الكبرى من الأقمار والكواكب .. تترابط بالجاذبية .. ولكنها جاذبية لاتزيد إلى القدر الذى يؤدى إلى تلاحمها وفنائها فى بعضها .. وإنما هى جاذبية يعادلها تنافر يؤدى إلى احتفاظ هذه الأجرام السماوية بأشكالها وشخصياتها ..

وهى تدور حول بعضها .. كما تدور كهارب الذرات .. وكما يدور كل شىء فى العالم حيا وميتا .. جامدا وسائلا وغازيا ..

ولافرق بين جامد وسائل وغازى ، إلا فى سرعة الدوران . السائل ذراته أسرع .. والغاز ذراته أسرع جدا .. ولذلك تتفكك جداً وتصبح هباء منثورا .. أو بالتعبير الساذج .. هواء .

ان مايبدو من شكل التراب على أنه شىء عشوائى فوضوى غير مرتب بلا شكل ولانظام .. هو مظهر غير صحيح .. فالتراب فى أدق دقائقه فيه نظام .. وله شكل .. وله ترتيب وتفصيل .. وفيه حركة مبثوثة فى ذراته ..

وكل شىء فى الكون له صورة ونظام وتفصيل وفيه نبض ..

وهنا يبدو الفاصل بين الحى والميت فاصلا رفيعا .. وهو يزداد شفافية كلما نظرنا بتعمق فى طبيعة المادة ..

فالمادة ليست فى حالة حركة فقط .. وإنما هى فى حالة حركة هادفة أيضاً ..

ان ذرات الكربون غير المشبعة تتحرك هادفة نحو التشبع والتوازن وتعقد علاقات وتراكيب وتفاعلات مع المواد الأخرى بهذا القصد ..

ومعنى هذا أن تركيب المادة فيه نظام وحركة وهدف ..

وليس هذا فقط بل إن تكوينات المادة فيها طابع الشخصية والتفرد أحيانا .. وهى تلتزم طابعها وتحافظ عليه .. فمادة كبريتات النحاس تنظم نفسها فى بللورات محددة ذات شكل محدد وهى تجدد نفسها فى المحاليل بنفس الشكل دائما .. وهى تنمو فى المحاليل وإذا قطعت بللورة منها إلى جزءين فان كل جزء ينمو محتفظا بطابعه .

وأغلب المواد العضوية وغير العضوية لها بللورات مميزة تعرف بها كما يعرف الأشخاص ببصمات أصابعهم ..

الحديد له بللورات .. والنيكل له بللورات .. والسليكا لها بللورات .. والصخور — من كل نوع — لها بللورات ..

والذى شاهد هذه البللورات تحت الميكروسكوب يشهد أن فيها جمالا هندسيا قد استوقفه طويلا ..

ومعنى هذا أن المادة الجامدة الميتة .. فيها حركة .. واستهداف نحو التوازن .. والنظام .. والجمال .. والتفرد .. والتبلور ..

وهذه الصفات تكسر السد القائم بين الحياة والموت .. وتكشف عن صلاحيات الحياة فى المادة الجامدة الميتة ..

انها لاتصبح مادة فارغة مهوشة .. وإنما تصبح منظومة لها صورة .

والفرق بين الحياة والموت يصبح فارقا فى الدرجة .. فارقا فى درجة التعقيد .. وفى درجة التركيب .. وفى درجة الانتظام فى صور منفردة .

ان منظومة الحياة هى منظومة غاية فى تعقد التركيب وغاية فى التخصص .

ولكن امكانيات هذه الحياة الرفيعة المتخصصة باطنة فى المـادة ..

ولايعنى هذا أن الحى ميت .. والميت حى .. وإنما يعنى أن الصلة غير مقطوعة بين المادة الحية والميتة .. يعنى أن العالم متدامج فى وحدة ومنبثق من أصل واحد وطبيعة واحدة يعنى أن الروح مبثوثة فيه كله .. والعقل باطن فى كل تضاعيفه .. بشكل جعله كله مصورا فى تراكيب وأنماط وقوالب وطرز فيها نظام وقانون وجمال .. ومهما بلغت الفروق بين هذه القوالب والطرز والأنماط الحية والميتة .. فان التعمق فى فهمها يردها جميعا إلى أصلها الواحد وجذعها المشترك الذى انبثقت منه .. إنه يكشف عن تشابهها جميعا .. ووحدتها الجوهرية .

ان الكون يمت لبعضه بصلة القرابة .

نحن والشمس والقمـر والثعبان والميكروب أولاد عمومة واحـدة ..

وحينما كشف داروين عن تأصل الأنواع جميعها فى نظريته عن التطور .. ضحك عليه الناس .. كيف يكون القرد والإنسان أولاد عمومة واحدة .

ولكن داروين برهن بالدراسة التشريحية أن المسألة ليست نكتة وأن التركيب التشريحي والسلوك الوظيفي للحيوانات والنباتات والأحياء جميعها يسلكها في عقد عائلي واحد.

وداروين لم يكن يحلم أنه بعد أن يموت ويشبع موتا سوف تستجد براهين أكثر خطرا من براهينه عن تأصل الأنواع..

ولكن هذا هو ماحدث .. ففي المجال الكيميائي ثبت أن كل الأحياء ذوات نسيج تركيبي واحد .. كلها منظومات كربونية ..

وثبت أيضاً أنها تحمل شبها تفصيليا أكثر دقة .. فجميعها مؤلفة من جزيئات ذات ترتيب يساري..

ثم كشفت الدراسة التفصيلية للذرة عن تشابهات أعمق في الكون كله .. أحيائه وأمواته .. فالكون كله منظوم نابض هادف فيه جمال وقانون وايقاع بديع ..

وبهذا امتدت صلة القرابة التي كشفها داروين بين الأحياء فاشتملت على الأموات أيضاً وسلكت الكون كله في وحدة واحدة .. وجوهر واحد .. وأصبح الفارق بين شكسبير وهو يبدع أشعاره وبين المحار وهو يبدع صدفته وبين المادة الجامدة وهي تبدع بلورتها الهندسية .. فارقا في الدرجة ..

* * *

الكون هرم يتربع الإنسان على قمته .. ولكن في كل حجر من حجارة الهرم مرحلة من هذا النظام البديع الذي كان تتويجه النهائي الإنســـان .

وهو تتويج موقت .. لأن الوجود دائب على الإبداع وسوف يعلو إلى ماهو أكثر تفوقا ونظاما وروحا من الإنسان ..

انى حيثما أدرت بصرى فى الكون من أصغر ذراته إلى أضخم شموسه ومن أدنى ميكروباته إلى أسمى مخلوقاته .. ومن ترابه إلى ذهبه وماساته ولآلئه .. وجدت النظام .. والجمال ..

ان الله متجل فى الكون كله ..

●

راس النملة

حتى الوردة فيها عقـل ..

اسمعوا .. هذه ليست نكتة ..
ان الوردة فيها عقل ..
وسنبلة القمح فيها عقل ..
وشجرة البلوط لها عقل .. وإن كان عقلا تخينا مثل جذعها التخـين .

ان حركة زهرة عباد الشمس وهى تلوى عنقها لتتجه نحو الشمس لاتختلف كثيراً عن حركة النحلة وهى تطير محلقة إلى الحقل لتجمع العسل .. ولاعن معركة الإنسان الواعية وهو يطير ليقتحم المخاطر مستهدفا رسالة سامية ..

ان بين الثلاثة ترابطا حيويا .

ان الثلاثة منظومة متصلة الحلقات الفارق بينها فارق فى الدرجة فقط ..

ان حركة زهرة عباد الشمس فى بساطتها .. عقل .. فما هو العقل ..

انه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة ..

انه فى كلمات قليلة بسيطة .. القدرة على اتخاذ موقف انتقائى أكثر ملاءمة للحياة فى كل لحظة .. والزهرة حينما تلوى أوراقها نحو الضوء تتخذ موقفا انتقائيا أكثر ملاءمة لحياتها .. انها تتحرك حركة عاقلة ..

ومعنى هذا أن العقل ليس شيئا جديدا فى الإنسان .. إنه فى الطبيعة الحية كلها ..

كل الفرق أن الإنسان لديه وسائل أكثر يتصرف بها ويحتال بها على بلوغ أهدافه ..

الإنسان بحكم كونه مخلوقا معقداً يملك أجهزة متعددة كل منها على درجة فائقة من التخصص .. فهو يملك يدين فيهما عشرة أصابع .. ويملك لسانا ناطقا .. ويملك عينين مبصرتين وأذنين حادتين .. وبشرة حساسة .. وأنفا شماما . وكل هذه الأجهزة فى خدمة عقله ..

الإنسان حيوان اقطاعى عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهفة ..

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينها .. وهذه خرافة اقطاعية غير صحيحة .

العقل باطن كامن فى كل الطبيعة الحية ..

ومنذ أن نبضت الحياة فى الأميبا الحقيرة ذات الخلية الواحدة وحركة هذه الآميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث وسوء النية التى فى الإنسان .. لاجديد فى الإنسان .. وإنما هناك التكامل

* * *

والنفس ..

ما النفس ..

ما الغرائز ..

انها الحوافز البدائية التى كانت تحفز الحيوان ليسعى فى حياته ومعاشه ..

الجوع الذى يحفزه إلى الطعام .. والعطش الذى يحفزه إلى الشراب .. والجنس الذى يحفزه إلى التلاقح والتكاثر ..

وهى نفس الحوافز التى نشأت منها الحوافز العصبية المتعددة فى الإنسان .. الطمع والخوف والجزع والغضب والكراهية والحب .. وهى مثلها .. مجموعة اشعارات وانذارات عصبية عن حاجات البدن الملحة الضرورية .

وعيب فرويد أنه وقف عند هذه الإشعارات والغرائز والحوافز واعتبرها مفتاح شخصية الإنسان ومفتاح سر الحياة ولغزها ..

ولكن الحقيقة أنه لا الغرائز النفسية . ولاحتى المنطق العقلى . يمكن أن يصلح مفتاحا لسر الحياة ..

الحياة لايمكن تفسيرها بأنها رد فعل غريزى لطلب الطعام والجنس ولايمكن تفسيرها بأنها تصرف منطقى للتكيف بالظروف .

هذه صفات فى الطبيعة الحية .. ولكنها ليست مفتاحا لسرها ..

الحياة ليست محفوزة من الخلف .. وليست منخوسة من ورائها بمنخس الغرائز .. وإنما هى واثبة متطلعة إلى الأمام بفطرة إرشادية عالية وبعاطفة مبثوثة فى خلاياها وأعصابها وقلبها .

الحياة ليست مدفوعة من الماضى .. ولكنها مرتمية فى المستقبل بفطرة توجيهية باطنة فيها ..

الحياة ليست مقهورة بقضاء محتوم يدفعها من خلفها .. وإنما هى رشيدة مختارة بصيرة تنتقى لنفسها على الدوام ناشدة هدفا فى الغد .

ان فيها مثيرات باطنة ترتفع بها فوق نفسها .. انها تتحرك بكامل صحتها وشعبها طالبة مستوى فوق مستوى حياتها الروتينى المتكرر المتشابه .

ان حب الجمال والخير والحق هو فى النهاية أحد المثيرات والمغريات المتأصلة فى الصميم الحى .. وليس هناك فارق كبير بين قدرة شكسبير على افراز الأشعار .. وقدرة المحار على افراز اللآلىء .. وقدرة خلايا الفراش على رسم الزخارف البديعة الجميلة على واجهة أجنحته ..

ان الفراش لم يكن بحاجة حيوية ملحة إلى رسم هذه الزخارف .. فالأجنحة كان باستطاعتها أن تقوم بوظيفتها بكفاية ومهارة دون أن تكون منقوشة .. فما السر فى نقشها ..

إذا قلنا أنها مثيرات جنسية وان الأنثى تتجمل للذكر .. فان

السؤال يظل مطروحا .. ولماذا يختار الذكر الأنثى الأجمل .. إن الجمال سيظل يفرض نفسه كهدف.

والسر هو نفس السر الذى جعل شكسبير يتغنى بالشعر .. إنه ليس أكل العيش وإنما هى مثيرات الجمال .. ومغريات الإبداع فى طبيعة شكسبير .. وفى طبيعة الفراش .. وفى الطبيعة الحية كلها ..

فى جرثومة الخلية الأولى بذرة كل هذه الأسرار الجمالية ..

الخلية التى بدأت حياتها بنشدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء ملائمة لانتعاشها وتكاثرها كانت تضمر فى جوفها غايات أبعد وهى ما لبثت بعد أن ملكت ناصية حياتها فى عقل الإنسان أن أفصحت عن هذه الغايات البعيدة فبدأت تنشد الجمال والحق والخير والعدل والسلام.

ان المثل العليا تحت الجلد ..

والقيم الرفيعة فى نسيج البروتوبلازم ..

وتفسير الإنسان على أنه جسم فقط .. أو نفس فقط .. أو عقل فقط خال من مثيرات الروح والوجدان .. تفسير ناقص يهبط بالإنسان إلى مستوى عداد منطقى وآلة حاسبة رياضية ويسلب الوجود الإنسانى نكهته وطعمه وحرارته.

ان زهرة عباد الشمس .. حتى زهرة عباد الشمس .. تتطلع إلى الشمس ..

ونباتات الصبار .. حتى نباتات الصبار .. تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحات فنان عاكف على ابتكار أفانين الجمال ..

والنحلة .. حتى النحلة تبنى بيتها فى معمار هندسى بديع .. الطبيعة الحية ليست طبيعة جائعة جنسية ولكنها أيضاً طبيعة متفننة عاقلة متطلعة حالمة ..

والمثل العليا والأهداف والأحلام والمأمولات الراقية الرفيعة ليست أشياء انفرد بها الإنسان .. انها فى الصميم الحى كله ..

ان غرورنا فقط كحيوانات اقطاعية امتلكت أوسع الثروات من الأجهزة والحواس .. هو الذى صور لنا هذه الخرافة ..

ونحن من فيضان هذه الثروة علينا .. بدأنا نفيض بقدراتنا على البيئة حولها .. ونبث فيها نظامنا وقانوننا ونخلق منظومات وأنماطا جديدة .. فنبنى البيوت والأبراج والمدن والمصانع .. ونبتكر عمارات من الشعر والنغم والألوان .. ونخترع شرائع وقوانين ودساتير ونظما .. ونسينا فى غمرة هذا الطوفان من الثراء .. ان كل هذه النعمة هى التركة التى انحدرت الينا من أجدادنا الحيوانات .. وأنها قبل أن تصل إلى رأسنا .. كانت فى رأس النملة .. وكانت فى لحاء الشجرة .. وكانت فى لباب الاسفنج .. وفى عصير الصبار المر..

وهذا يعنى أن معجزة الحياة ليست فى مخلوق بعينه .. ولكنها فى النسيج الحى نفسه .. أينما كان هذا النسيج نباتا أو حيوانا أو انسانا أو خلية تدب فى مستنقع ببطء وعماء دون أن ترى

ودون أن تسمع .. فى البروتوبلازمة .. فى هذه الجيلاتينة الهلامية كأنها الماظية مرشوقة بالسمسم والفستق ..

والذين شاهدوا البروتوبلازمة تحت الميكروسكوب يعرفون أنها تتحرك وان حبات السمسم والفستق فيها تدور وتدور حول بندقة صلبة فى وسطها هى النواة .. وأنها أحيانا لها جدار يحفظها .. وأحيانا لايكون لها جدار .. وإنما تكون بضعة هلامية سائبة رخوة تتلوى كبقعة زيت سميكة فى الماء ..

●

س

أنا س ٣ وانت لو غاريتم س ١٩!

اكتشفنا أثناء هذه الرحلة من التفكير والتأمل .. أن الإنسان كائن مركب .. وأنه ليس شيئا بسيطا محدداً مثل الكرسى والمائدة والمحبرة وإنما هو حقيقة نامية متطورة تتقرر كل لحظة .. تتقرر من الداخل .. بارادة خاصة .

وانه يمكن أن يعيش على مستويات عديدة ..

يمكن أن يعيش حياة كثيفة غليظة منحطة كحياة النباتات .. كما تحدث أثناء النوم .. فيتضاءل إلى مجموعة وظائف تحدث فى آلية وتلقائية بدون وعى ..

ويمكن أن يعيش حياة ثرثارة مألوفة مبتذلة .. تقوده أفكار جاهزة وعادات موروثة وتحركه تقاليد قديمة متبعة .. وتصدر أفعاله مضبوطة بمواعيد يحددها له الناس بالساعة والدقيقة .

ويمكن أن يعيش حياة عميقة يرتد فيها إلى نفسه وينقاد لأفكاره ورغباته ويحيا فى زمنه الخاص وتوقيته النفسى الصادر عن ارادته

وعاطفته .. وفى هذا المستوى تكون حياته أصيلة .. وتكون أفعاله مدلولات مباشرة لشخصيته .

ويمكن أن يبلغ أعمق أعماق وجوده فى لحظة الحب .. ولحظة التأمل ولحظة الإبداع .. ولحظة التصرف .. فينفتح شعوره على احساس بالدوام والأبدية .. ويتذوق لحظة غريبة لازمنية .. لا شخصية .. لحظة عميقة .. تذوى كل اللحظات وتنتهى كل الأيام وتنصرم السنين .. وتبقى تلك اللحظة شاخصة فى ذاكرته عالقة بوجدانه ...

هذا الشعور يدل على أن الإنسان مفتوح من الداخل على وجود من نوع آخر غير الوجود الخارجى الجامد المحدود الزمنى الآلى الذى يرسف فى الحتمية والقوانين .. وجود حر يتدفق فى لا مكان ولا زمان ويصدر عن لا أسباب .. وجود تقويمه فيه .. وأسبابه فيه .. وجود تصدر عنه الإرادة والشخصية والسلوك والفعل .. ويبدو العالم الواقعى جزءاً منه ونتاجا من نتائجه ..

وجود عميق مثل النبع الخفى تضرب فيه جذور الإنسان وأعصابه وتستقى منه وجودها واحساسها بالحقيقة .. واحساسها بالاستمرار فى دوامة الواقع المتقلب المتغير .. وتستمد منه الشعور بأرض ثابتة وسط هذه الظواهر المفككة التى تبرق وتختفى .. وتستمد منه الثقة بأن هناك أمانا .. وسكينة وطمأنينة ..

وجود أبدى تبدو فيه الحياة الزمنية حقيقة لمجرد أنها مستمدة منه منتمية اليه .

والنفس لائذة على الدوام بهذا الوجود الداخلى .. لاجئة اليه .. من القلق وخراب الأعصاب الذى يحدثه الواقع المادى بتقلباته وتغيراته .

وهذا هو وجود الـ أنا المطلق .. أو الأبدية .. أو الحقيقة .. أو الروح ..

ولا أقصد الروح بمعنى الشخصية . . فهذا الوجود غير شخصى .. وهو أعمق من أن يكون شخصياً .. وأعمق من أن يكون متعينا محدداً .

ان الواقع المتعين المقسم إلى حركات وانتقالات فى الزمان والمكان .. هو واقع الزمان والمكان .. واقع الظواهر فقط .. أما الوجود الداخلى فهو وجود جوهرى لايقبل القسمة ولايقبل التعدد .. إنه حقيقة كل هذه الظواهر وينبوعها .. وهو منبع الشخصية ولكنه أبدا ليس الشخصية .

والحقيقة بسيطة وواحدة وكل ما نشاهده حولنا من تعدد وتباين واختلاف غير حقيقى وظاهرى ومؤقت .. بدليل أنه يمت إلى بعضه .. وينتمى إلى بعضه .. ويخفى تحت تعدده الظاهر وحدة أصيلة ينبع منها ..

وقد اكتشفنا أثناء هذه الرحلة الفكرية أن كل المخلوقات هى مجرد تصانيف وتواليف مختلفة من مادة واحدة هى البروتوبلازم ووحدات دقيقة متراصة هى الخلايا .. كلها تصانيف وتواليف من (س) .. وس هذه أشبه بالمادة عند ماركس والهيولا عند أرسطو .. إنها الخامة الأولية التى بنيت منها الدنيا .

وحتى صنوف المادة الميتة هي الأخرى تواليف مختلفة من مفردات بسيطة هي الالكترونات والبروتونات وهي شحنات سالبة وموجبة من الطاقة .. مرة تبدو هذه الطاقة في شكل حرارة .. ومرة في شكل ضوء .. ومرة في شكل كهرباء .. ومرة في شكل مجال مغناطيسي .. ومرة في شكل حركة .. ومرة في شكل حيـــــاة .

والعناصر المختلفة من رصاص وصوديوم وحديد ونحاس وكبريت ما هي الا تواليف مختلفـــة من هذه الالكترونات ، والبروتونات .. وفي الإمكان تحويل عنصر إلى آخر بتغيير توليفته الذريـــة .

ان كل التباين والمفارقة والاختلاف بين الموجودات هو اختلاف شكلي ظاهري قابل للاختزال في النهاية إلى أصل بسيط واحد مشترك .

ان في باطن هذا الكون حقيقة واحدة بسيطة .. جوهرا واحدا .. جذرا نبت منه كل فرع من فروع هذه الشجرة .. وكل فرع حقيقي بقدر ما يفصح عن أصله .. وبقدر ما يحمل طابع وراثته في خلاياه وأزهاره .

حتى الكواكب والنجوم والشهب والمذنبات ما هي إلا تصانيف مختلفة من المادة نشأت من سحب من الذرات والغبار كانت سابحة في الفضاء .

الوجود منتجات لانهائية .. وصور لانهائية من أصل واحد وحقيقة واحدة بسيطة أزلية أبدية محتواها غني لانهائي .. يتخلق

فى قوالب لاحصر لها .. وتعدد المخلوقات والموجودات هو الدال على هذا الثراء والغنى اللانهائى .

والتعدد هو تعدد فى الواقع وفى الظاهر وفى العالم المرئى .. .

لكن الخامة الأصلية واحدة .. بسيطة .. وانما الأشخاص هم الذين يتعددون .. كل شخص هو بذاته توليفة فريدة من هذه الخامة الواحدة .. ولكنه فان فى النهاية ..

وكل متعين فان ..

وكل موجود فى الزمان والمكان فان ..

كل شكل وكل تركيب ينهدم كما تنهدم عمارة مبنية من الطوب والجير والأسمنت .. لكن يبقى المشروع .. يبقى الرسم الهندسى والتصميم الأصلى الذى أقيمت العمارة على وفاقه .. وهو « الصورة » عند أرسطو .. والروح عندنا .. والأنا المطلق فى الفلســفة .

وهذا الرسم الهندسى والتصمم الأصلى هو من ابداع الخالق ومن روحه وهو نفحة منه ولهذا لايموت .

وهذه الروح .. وهذا الأنا المطلق .. الذى ليس شخصا بالذات .. ولانفسنا بعينها .. هو الذى يهمس فى داخلنا بدهشة حينما يرى الموت .. ولايصدقه .. ولايعبأ به .. لأنه غير ذى موضوع بالنسبة له .. ونحن حينما نفزع من الموت .. نفزع على هذا الأنا المطلق .. على هذا الإحساس العزيز الحميم الذى يربطنا بالواقع وبنفسنا .. ولاموجب للفزع .. لأن هذا المطلق فى منطقة أبدية لاموت فيها .. ولا تغير .. ولاتبدل .

ان الذى يموت فينا .. هوما يموت كل يوم .. ويتغير كل يوم .. أجسامنا .. نفوسنا .. شخصياتنا .. كل هذا يموت . لأنه يموت بالفعل .. يموت بالحياة .. ويتغير .. ويتبدل .

أما الروح .. أما الأنا المطلق .. فهو حى أبدا .

نحن مفتوحون من الداخل على هذا الواحد المطلق .. اللاشخصى .. اللامكانى .. اللازمانى .

وبالنسبة لهذا الأنا المطلق .. لامعنى للموت أو الفناء أو التغير .. أو التبدل ..

إنه كنز لانهائى . وثروة مطلقة .. تصدر عنها أفعالنا وأشخاصنا وحياتنا .. ثم نموت .. ونشبع موتا .. ويبقى هوفى عالم الروح الذى انبعث منه .

ولأننا مفتوحون من الداخل على هذا المنطلق .. يداخلنا الوهم بأننا نحن أيضاً لن نموت ..

* * *

وهذا هو الالتباس الطبيعى الذى نقع فيه بسبب حياتنا المزدوجة .. وطبيعتنا المزدوجة من جسد وروح .

اننا كنبضات منفعلة نخيل لنا أن لنا كيانا حقيقيا مستقلا عن القلب الدائم .

ان صدورنا من الروح الخالدة وانتماءنا لها بحكم الأصل يوقعنا فى هذا الوهم .. ولكننا فانون .. ونحن فى حالة فناء متصل حتى ونحن على قيد الحياة .. وخيط الكينونة الذى يربط لحظاتنا

وتمسك بتحركاتنا المفككة فى المكان .. هذه الوحدة المتجانسة التى تسرى فينا وتمسك بوجودنا غير المتجانس ليست من عالم الزمان ولا من عالم المكان .. وليست من العالم المشخص المتعين .. وليست منا بقدر ما نحن منها .

وهى وحدة ليست بذاتها متعينة .. وإنما هى سياق مطلق غير متعين .. سياق يضم كل المواقف التى نقفها فى حياتنا يضمها فيما يشبه الأنا المطلق الذى هو روح كل منا والذى هو شرارة من الروح الإلهية العظمى التى هى ينبوع الخلق والتى صدر عنها الكل واليها يعود .

ولهذا نرى أن كل أشكال الوجود تمت إلى بعضها بصلة القرابة الوثيقة .. هناك صلة رحم تجمعها جميعا فى خامة مبدئية واحـــدة .

وعملية التبادل التى تحدث بين صنوف الموجودات فى كل لحظة تكشف عن هذه الصلة العائلية بينها ..

النباتات تأخذ من الأرض أملاح الفوسفات والنترات وتأخذ من الهواء مركبات الكربون وبخار الماء..ثم تحول هذه المـــواد المعدنية الميتة إلى أنسجة حية خضراء مثل أنسجتها .

والحيوان يأكل أنسجة النبات ويحولها إلى لحم ودم وعظم

وعضلات ثم هو فى النهاية يموت ويتعفن ويتحول إلى تراب وأملاح معدنية ترتد للأرض الأم .

هذه الحلقة الدائرة تكشف عن الخامة المشتركة التى تخلقت منها كل هذه الأشكال المتعددة .

وبالرغم من الخلاف الهائل فى المرتبة الحيوانية بين النمر المتوحش المفترس ، وبين الإنسان الرقيق الوديع العاقل .. فان النظرة التى يتبادلها الاثنان فى حلقة السيرك .. نظرة مروض الوحوش إلى الوحوش وهى راكعة عند قدميه .. تكشف عن ذلك الشيء المشترك الذى يجمع الاثنين فى رابطة خفية من الود ، والتعاطف .

بالرغم من كل الوحشية التى فى النمر .. وكل الوداعة التى فى الإنسان .. يلتقى الاثنان فى لحظة تعاطف وحنان .. وكأنهما تعارفا منذ الأزل .. حيث الخالق واحد ومادة الخلق واحدة .

وهكذا من خلف كل العيون يطل علينا جلال الخالق أقرب الينا من حبل الوريد .

* * *

الواحد الصحيح مختلف وراء التعدد .. والشبه الأصيل مختف وراء الاختلاف .. والارتباط الحميم مختف وراء التفكيك الظاهر .

والوجود كله أنشودة طويلة من ملايين الكلمات تفصح عن روح إلهية خالدة .. وعن معناها اللانهائى .. وثرائها الممتلىء أبدا بالإمكانيات .

والموت معناه أن الخالق يقول لنا :

وعندى المزيد .. وعندى امكانيات أخرى لاتنفد .. انظروا .. هاكم شيئا آخر تماما .. هاكم مفاجأة أخرى .. هاكم مولد طفل جديد ..

●

الواحد الصحيح

كلنا من أب احد

أكبر شيء فى الدنيا هو الواحد الصحيح .

فهو يمكن أن ينقسم إلى اثنين ثم إلى أربعة وثمانية وستة عشر واثنين وثلاثين .. وأربعة وستين ، الخ ، الخ إلى ما لانهاية فيعطيك كل الأرقام التى خطرت وتخطر بذهن عمالقة الحساب من أيام اقليدس وفيثاغورس إلى اينشتين .

إنه واحد صحيح بسيط ولكنه يحتوى فى بطنه على جميع الأرقام وعلى اللانهاية .

وقد بدأت الحياة بواحد .. خلية واحدة انقسمت فأصبحت خليتين ثم أربع ثم ثمان ثم ألوفا وملايين وبلايين تنوعت بحسب البيئات والظروف وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفراشات وديدان وقردة وآدميين .

وقد بدأ الكون بغاز بسيط واحد هو الايدروجين .. هو الذى يشتعل الآن فى باطن النجوم ليعطينا النور والدفء مع أشعة الشمس كل صباح ..

ومن الايدروجين فى باطن الأفران النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكربون والسليكون والزئبق واليود وكافة العناصر التى نراها متحدة ومنفصلة حولنا على شكل مركبات ومواد أولية وصخور ورمال .

ومن عجب أن ذرة الايدروجين هى الأخرى لاتحتوى إلا على بروتون واحد والكترون واحد يدور حوله .

وكل ما يحدث فى باطن النجوم أن هذه الذرة تتفتت لتعطى الضوء والحرارة والإشعاع ويعاد تركيبها فى أشكال جديدة ونسب جديدة .. مرة ١ + ٢ ومرة أخرى ١ + ٣ ومرة ثالثة ١ + ٤ .. وفى كل مرة يخرج عنصر جديد إلى الوجود .

وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليست إلا هذه التواليف التى نشأت كلها من قسمة واحد صحيح اسمه ذرة الايدروجين .

وأنت واحد صحيح تبدو فى نظر نفسك صغيراً ومحدودا ولكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدركات والمعارف مالا حد له .. فأنت أصغر من العالم بكثير ومع ذلك تحتوى على العالم فى داخلك وتتصوره وتتخيله وتراه ..

على شبكية عينك ترتسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات..

وفى عقلك تختصر هندسة الكون إلى شفرة جبرية ومعادلات ورموز وأرقام .. وهى أرقام تثبت لنا كل مناسبة أنها أرقام صحيحة ..

ما يتخيله الحاسبون على الأرض من معادلات تثبته سفن الفضاء والصواريخ والأقمار وتبرهن على صحته المراصد وأجهزة الـــرادار .

ان ذلك الواحد الذى هو انت .. هو فعلا مشتمل على هندسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه فى داخله ..

أنت الواحد والمحدود تحتوى على نموذج مصغر للانهاية فى داخلك ..

وكل ما فى الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وانسان هى فى الحقيقة أجزاء الواحد الصحيح .. والشر والخير هما كالظل والنور فى لوحة واحدة كل منهما مكمل للآخر وضرورى لوحدة اللوحـــة ..

كل منا لحن وجملة موسيقية فى سيمفونية متكاملة ..

الألم هو احساس الانفصال .

العذاب هو إحساس الانفصال ..

أنت تتألم حينما تنفصل فى أنانية عن الكل وتنسى انك حرف وسطر فى آية الوجود الكبرى أما إذا توجهت إلى الوجود فى شعور حميم بالنسب والقرابة فانك ستشعر انك تستطيع أن تؤاخى الأسد وتصاحب ضباع الغاب وتروض الثعابين والأفاعى فتلهو معك وتلهو معها وكأنها عائلتك .. وذلك أن الوجود كله ما هو إلا الوجوه المختلفة للواحد الصحيح ..

كلنا أقربون ..

انت القاتل والقتيل ..

أنت الذئب والفريسة ..
أنت الطاعن والطعين ..
وما فواصل المكان والزمان إلا وهم الأوهام .

وعليك بعين وجدانك أن تخترق هذه الفواصل الوهمية لتكتشف الاخوة والنسب والقرابة بينك وبين كل شيء.. ولتكتشف أن حياتك الحقيقية هي فى فنائك فى هذا الكل الذى تعيش فيه .. لأنك بهذا تسترد وحدتك وحقيقتك .

انت أحد آحاد الأحد الأكبر ، وما تعلن من حروب هي حروب تعلنها على نفسك ، وما تقتل حينما تقتل الا نفسك .

وما الحب بينك وبين الآخرين إلا الحنين إلى وحدتك الأولى .

وما الحب الذى يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول إلا محاولة للعودة بها إلى الوحدة ..

وما الجاذبية بين النجوم التى تؤلف المجرات والكوكبات إلا عودة بالكل إلى نظام الواحد .. وفى النهاية الموت الذى يعيدنا ترابا إلى أمنا الأرض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه وليصبح الآكل منا مأكولا .. تذكرة لنا بالحقيقة ..

والنار التى تأكلنا جميعا وتحيلنا إلى فحم ، الأشجار فحم .. والثعابين فحم .. والقردة فحم والآدميون فحم .. وكل الحياة فحم .. اشارة إلى أصلنا الواحد .. فما الحياة إلا تصانيف مادة واحدة هى الكربون ..

كل تغيير يعود بصورنا المتعددة إلى الواحد الصحيح .. هذه الظواهر المتباينة المختلفة تعود فى النهاية إلى وحدة بسيطة ..

وكما قلنا قبلا أن فى الكائن الحى مئات الأنواع من الأنسجة جلد وأظافر وعظم وشعر وأسنان وعضلات ومخ وكبد ودم والياف وكلها تحورات خلية واحدة بسيطة هى خلية جنين ..

ومن الأرض وفى حقل واحد يعطى الطين الواحد الف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور والطحالب والبكتريا ..

من الواحد يخرج الكل ..

وإلى الواحد يعود الكل ..

وكما تبدأ بعود كبريت إلى جوار عود كبريت إلى جوار عود كبريت فتصنع مثلثا ومربعا ومستطيلا ومسدسا ثم هرما ثم مكعبا ثم أشكالا مختلفة من المعمار .. كذلك الوجود المعقد حولك يرتد إلى وحدة بسيطة هى الذرة دخلت فى تواليف وتراكيب لاآخر لها وأنتجت ما ترى من ظواهر مختلفة متباينة تتناقض وتتحارب وتأكل بعضها وتقتل بعضها وهى فى النهاية من أب واحد.

واحد صحيح ..

الحياة والموات .. والسوائل والجمادات والغازات ... والإشعاعات .. مصنفات شىء واحد .. الفرق بينها فرق نسب وعلاقات وكيفيات.

ذرتان من الأكسوجين تعطيانك ذلك الغاز اللطيف الذى تتنفسه.

وثلاث ذرات من الأكسجين تعطيك سما زعافا قاتلا اسمه الأوزون ..

بل ان نفس الذرتين إذا ركبتا بتشكيل وكيفية مختلفة تعطيان مادة مختلفة .

الاختلاف فى الماهية يرتد فى النهاية إلى خلاف فى التشكيل والكيف والكم .. فى النسب والأرقام والعلاقات .

الفرق بين السكر والنشا هو فرق فى ترتيب وعدد الذرات الداخلة فى تركيب الاثنين ولكن الاثنين من مادة عضوية واحدة هى الكربوايدرات .

والفرق بين سم الثعبان وبين طبق شهى من البيض المقلى فرق شكلى فى معمار الذرات .. فالاثنان كلاهما مادة واحدة هى البروتين ..

والكون شيء واحد يعاد صبه وسبكه فى قوالب وأشكال وتراكيب لاحصر لها ..

والأصل واحد صحيح ..

الفرق بين شكسبير والبواب الذى يقف على باب بيتك والكلب الذى يهز ذيله أمامك .. والقملة التى تمرح فى رأسه .. هو الفرق فى النسق والترتيب والكيفية التى تصطف فيه الأحماض الأمينية فى الجينات الوراثية .

انه فرق فى مادة واحدة اسمها د.ن.ا (حامض ديزوكسى ريبونيوكلييك) تتألف من واحد وعشرين حمضا أمينيا يمكن أن تصطف بطريقة أو بأخرى كما تصطف الحروف فتؤدى إلى مخلوقات مختلفة كما تؤدى الحروف إلى كلمات مختلفة وعبارات متباينة ..

انه فرق شكلى كيفى . . وفرق فى النسق .. وفى الصياغة لمادة واحدة .. إننا أمام خالق مبدع أبدع تصميات (أرواحا) صيغت على وفاقها مواد أولية واحدة إلى ما لانهاية من الفرديات .

وكما أن ٢٦ حرفا أبجديا أمكن أن يؤلف منها ملء مكتبات الأرض من اللغات والعلوم والمعارف والفنون والحضارات بمجرد تباديل وتوافيق بين الحروف .. كذلك صانع الحياة أمكنه بالتباديل والتوافيق بين الأحماض والتوليف بينها فى تصميمات مبتكرة أن يصنع من المادة الواحدة التى اسمها د. ن. ا. كل ما يدب على الأرض من فصائل وأنواع وأجناس وأفراد من شكسبير إلى الميكروب مارة بكافة صنوف الحيوان والنبات التى تأكل بعضها بعضا وهى فى الأصل واحد ..

وعلماء الطبيعة يقولون لنا أن الفرق بين ما نرى من ألوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء هو فرق فى أطوال موجات الضوء .. مجرد فرق رقمى ..

والفرق بين أشعة الضوء وأشعة اكس وأشعة جاما القاتلة وأمواج الرادار وأمواج اللاسلكى التى نسمع بها الراديو هو أيضاً فرق فى الأطوال الموجية .

أشعة الضوء تقدر أطوالها بالميكرون وأجزاء الميكرون.

وأمواج الرادار بالمليمتر ..

.. أما الظاهرة نفسها فهى ظاهرة واحدة اسمها الأمواج الكهرمغناطيسية .

والنتيجة مرحة جداً وسارة ، ومثيرة للتفكير وللدهشة بقدر ما هي سارة .. فالفرق بيني وبينك وبين الحمار وبين قالب الطوب هو في النهاية فرق حسابي في الكم وفرق في نوعية الترتيب .. فرق يمكن أن يعبر عنه بالأرقام مادامت مادة الوجود (حيا وميتا) يمكن أن ترتد في بساطة شديدة إلى أصل واحد . ولنسمه س .. فيكون الحمار هو الجذر التربيعي لـ ٣٤٣ س وتكون سيادتك لوغاريتم س ص ٩١ وأكون أنا س ص ع ٣ .. حيث تكون ص ، ع رموز للعوامل الكيفية المجهولة التي تقابل عندنا الروح والعقل والضمير .

العالم كله تشكيل من مادة واحدة ..

وما نرى حولنا أنماط فن تشكيلي .. وحاصل ضرب وطرح وجمع وقسمة شيء واحد ..

وبقدر مايمكن أن ينقسم الواحد .. وبقدر ما يمكن أن تنضاف الأجزاء لتؤلف فيما بينهـا مجاميـع وكسور وجـذورا ولوغاريتمات .. وبقدر مايمكن أن يدلك علم حساب المثلثات وحساب التفاضل والتكامل على الاحتمالات اللانهائية التي يمكن أن تنتج عن هذه العمليات الرياضية تكون صورة الكون الذي تراه أمامك وتكون حقيقته .

مجرد كميات وكيفيات ومقادير وحدود رياضية وأطوال يقسمها الزمان والمكان إلى الصورة التي تراها بها .

وأنت تضحك الآن وتتساءل .. كيف يمكن اختزال العالم بكل مباهجه وألوانه النابضة إلى مجرد شفرة رياضية .. ومع ذلك أنت تستمع كل يوم إلى الموسيقى وتطرب وتهتز وتنتشي ،

مع أن هذه الموسيقى ليست فى الحقيقة إلا سباقا من الأرقام .. مجرد تتابع من الذبذبات يتفاوت ارتفاعا وانخفاضا وشدة وضعفا وهى بحساب الموجات الصوتية التى تطرق طبلة الأذن مجـــرد اهتزازات تتفاوت فى المقدار .. فى النهاية أرقام .. وكيفيات ..

المعمار الموسيقى هو معمار هندسى رياضى فى المقام الأول .

إنه رسم فى الفراغ ..

كل مقطوعة موسيقية معادلة رياضية لها قوانينها .

ومع ذلك فأنت تنفعل بهذه المقطوعة الموسيقية كما لو كانت كيانا مستقلا ومخلوقا ذا شخصية .

وبالمثل فأنت تنفعل بالغروب كصورة جمالية مع أنه معادلة رياضية من الأطوال الموجية .. وبالمثل يمكن أن يكون الحمار هو فى واقع الأمر « الجذر التربيعى لـــ٣٤٣ س » مع أنك ترى شيئا مختلفاً .. مخلوقا له رأس وأذنان طويلتان وذيل ، فهكذا تترجم لك حواسك بلغتها الخاصة ماترى من معادلات رياضية وأرقام مجردة .

وجهاز الإرسال التلفزيونى حينما يرسل صورتك عبر الأثير إنما يرسلها على هيئة أمواج يلتقطها الاريال لينقلها إلى جهاز الاستقبال على هيئة نبض كهربائى يتفاوت شدة وضعفا ..مقادير من الطاقة هى فى نهاية الأمر المعادلة الرياضية لصورتك ..وما يفعله جهاز الاستقبال (وهو نفس ما تفعله الحواس حينما ترى منظر الغروب) هو أن يترجم هذه المقادير من النبضات الكهربائية . يترجم هذه المعادلة الرياضية إلى مقابلها من الظل والنور على شاشة

جهاز الاستقبال فتعود صورتك إلى الظهور بالشكل الذى عرفتها به (ولكنها قطعا كان لها شكل آخر وهى على الأثير .. كانت حينئذ أمواجا .. كانت معادلة مجردة من الحدود الرياضية والمقادير والكيفيات) .

فالعالم إذن له صورتان (وفى الحقيقة صور عديدة بقدر ما تتفاوت وسائل الحس) .

صورة هى التى نراه بها .

وصورة تقول بها الكميا التحليلية والطبيعة والتشريح وهى أرقام ومقادير وكيفيات وعلاقات ترشدنا اليها أدواتنا وأجهزتنا ومقاييسنا .

وصورة مجردة هى النسق الأصلى وهى أشبه برسم فراغى أو مثال هو الذى خلقه الخالق ابتداء وهى الروح ..

لكل مخلوق روح .. هى المثال والنسق الأصلى الذى صيغ عليـــه .

وهو تقريب وتبسيط فيه كل أخطاء التبسيط والتقريب .. لأنه يحاول أن يتلمس ويشخص ويجسد مالايمكن تجسيده بالكلام ..

فحينما يصل الفكر إلى منطقة الروح فانه يصـــاب دائما بالعى والخرس فلايجد اللغة التى يستطيع أن يشرح بها احساسه .

ان وحدة النسيج بين الموجودات حقيقة مطلقة .

ولكنها وحدة لاتنفى تفرد هذه المخلوقات وانفراد كل منها بشخصيته وخصائصه .

بل ان هذا التفرد يبدو فى الإنسان تفرداً مطلقاً ليس فقط فى النمط السلوكى والشخصية والنفس وإنما حتى فى التشكيل البنائى المادى .. فنرى كل انسان قد انفرد ببصمة أصبع خاصة به لا يتشابه اثنان فى هذه البصمة حتى ولو كانا توائم .

ومنذ بدء الخليقة وكل واحد من ملايين الملايين من الآدميين له بصماته الخاصة به .

هذا الانفراد المطلق فى الجسم والنفس لكل إنسان ولكل مخلوق هو حقيقة أخرى تنضاف إلى الوحدة المطلقة التى صدر عنها الكل ..

بل ان النسيج الحى ليتفرد لدرجة أنه يرفض أى رقعة من جسم آخر .. فيرفض الجسم قلبا أو كبدا أوكلية تستعار له من جسم آخر لانقاذه .. ويموت مفضلا أن يكون هو هو .. على أن يعيش برقعة من جسد آخر ..

إن تفردنا حقيقة مطلقة .

كما أن صدورنا من أصل مشترك حقيقة ثانية .

اننا نخرج من الواحد ..

ولكننا نعود فيتوحد كل منا ليصبح « نسيج وحده » لا يتكرر ولا يشبهه شبيه .

بل ان قصة الحياة هى فى ملخصها خروج هذه الشخصية الفردانية المتمايزة من عماء مادة متجانسة كالطين والماء .

واكتشافنا للواحد الصحيح خلق تصانيف الحياة يجب ألا يحجب عنا هذه الفردانية والتفرد ولا أن يخفى عنا أصالتنا كأفراد .

وهى فردانية ذات معنى .. فكل منا بعد أن خرج من الواحد الصحيح قد عاد بدوره محاولا أن يصبح «واحدا صحيحاً» فى ذاته له أصالته الخاصة المتميزة .

وهذه الصورة الجسدية المتفردة هى التعبير الخارجى لتفرد الروح الداخلية وأصالتها .

إن تفرد القالب هو التعبير الخارجى لتفرد المحتوى .

تفرد الشكل يدل على تفرد المضمون .

●

الروح

**اذا كنت انا الجوع فكيف اتحكم
فى الجوع .**

من أنت ..

من أنتم ..

من نحن ..

من باب التبسط الشديد يقول الماديون ما نحن إلا أجسادنا نحيا .. ونموت .. ثم لاشيء بعد .. ولاشيء قبل ..

الأجساد التى كانت .. والتى تكون الآن .. سوف تتحلل غدا إلى تراب .. ثم تنتهى القضية فلاشيء فى الدنيا سوى مادة .

فى البدء كانت المادة ثم تطورت ثم أصبحت انسانا .. وغداً يموت الإنسان ويسدل الستار على الفصل الأخير من المسرحية .. هذه حقائق موضوعية .. فلنكن موضوعيين .. فلاوجود إلا لما هو موضوعى .. والجسد شيء موضوعى جدا قابل للدرس والفحص والتشريح .

هذا هو الحل السهل .. السهل جدا ..

والقائل هنا لايكلف نفسه حتى ولو نظرة تحت الجلد .. حتى ولو نظرة إلى داخل نفسه .

فاذا قلت له أن الجسد ليس الإنسان وان داخل الجسد نفسا هي لصاحبها ليست شيئا موضوعيا وإنما هي حقيقة ذاتية وأنه بالنسبة للإنسان نجد دائما ذاتا في مقابل الموضوع .. قال لك وما الذات .. وما النفس .. انها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف .. وهي مجرد الإشعارات التي يدرك بها الجسد ما يحتاجه.. وانها للجسد مجرد ملحقات ثانوية على وجوده وخادمة له .. وما النفس في مجموعها إلا مجموع ردود الفعل التي تتراكم كل يوم من صدام الجسم مع بيئته وظروفه .. وهي في النهاية يمكن أن تكون موضوعا هي الأخرى .

موضوع بالنسبة لمن ؟

موضوع بالنسبة للآخرين ! ! ؟؟ .. وكيف والآخرون لا يرونها ولايدركون وجودها إلا استنباطا من ظواهر السلوك وهي ظواهر أغلبها كاذبة فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه .

أم هي موضوع بالنسبة لصاحبها ؟ !

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فانها تبرد وتستحيل تحت مشرط التحليل إلى جثة وتستخفى عليه وتهرب من يديه لأنها

لا يمكن أن تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهر مثل ورقة شجرة .. لأن جوهرها بالدرجة الأولى فى ذاتيتها ، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة فهى الذات فى مقابل الجسد الذى هو موضوع .. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة .. فاذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعى فلابد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئا غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات .

فاذا عدنا إلى التعريف الساذج للذات والنفس بأنها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف والإشعارات التى يدرك بها الجسد أنه ظمآن أو جوعان أومشتاق جنسيا فاننا أمام تفسير متهافت شديد القصور فما هكذا حقيقة النفس ولاحقيقة الإنسان .

ان الإنسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافىء فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والحرية ، فأين حوافز الجوع والجنس هنا .. وحتى العامل البروليتارى فى فيتنام الذى يموت على مدفعه فى سبيل غد لم يأت بعد . . هو اثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية تلك الإرادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة وعالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعا وذيلا .

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع .. إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى

هى الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الإنسانية .

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد .
وعن طريق العقل أتحكم فى النفس .
وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الإثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته .

والذى يقول بأن الإنسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لاغير .. عليه أن يفسر لنا أين ذلك الإنسان فى لحظة النوم .

ان جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة أثناء النوم وجميع الأفعال المنعكسة تحدث بانتظام فاذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيداً عنك .. والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والاحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج .. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة . مجرد شجرة أو حيوان .. أو حياة بدائية لاتختلف عن الحياة الحشرية .. فأين الإنسان .

ان النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت .. ثم البعث يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجأة وبلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فاذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق .. وإن الفرق لهائل .. أكبر من أن يفسر بتغير مادى يتم فى لحظات .

ان التبسيط المخل والبحث عن الحل السهل خلاصا من مشكلة بلا جواب هو الذى دفع الماديين إلى هذا التصوير الساذج للإنسان بأنه جسد ومجموعة ردود أفعال وأنه من التراب يأتى وإلى التراب ينتهى ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذه النكتة فى عالم رائع محكم تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الأسباب إلى غاياتها وتخدم فيه الموت والحياة ويفتدى الإنسان بدمه كل لحظة أشد المثل والأهداف تجريدا .. ولا يذهب أى شىء هبـــاء .

فكيف يذهب الإنسان وهو أشرف المخلوقات هباء .. ويتبدد ســـدى .

ونقف مرة أخرى أمام ملاحظة ثانية تستحق التأمل هى هذه الخاصية التى تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى نفس الفلك .. ولابد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها .. ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أو متحرك .. لأنك أصبحت قطعة واحدة معه فى حركته . لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت فى الخارج .

ونفس الحال فى قطار يسير بنعومة على القضبان .. لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه إلا لحظة شروعه فى الحركة أو شروعه فى الوقوف أو لحظة اطلالك من النافذة على الرصيف الثابت فى الخارج .

وبالمثل لايمكنك رصد الشمس وانت فوقها ولكنك يمكنك رصدها من القمر أو الأرض .. كما لايمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من على القمر.

لاتستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها .

وعملية الإدراك هى اثبات أكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة .. الشىء المدرك .. والنفس المدركة خارجه .

ولهذا ماكنا نستطيع إدراك مرورالزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر.

ولو كان ادراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبدا .. ولانصرم ادراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئا ..

وهى نتيجة مذهلة تستدعى وقفة تأمل طويلة ..

فها نحن أمام حقيقة انسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لايكبر ولا يشيخ ولايهرم ولاينصرم .. ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة الغير زمنية .. ولانجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذى نقلته لنا الأديان .. وهو الروح ..

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله ..

ويدرك أنه وجود مغاير في نوعيته للوجود الخارجي النابض المتغير الذي يتدفق حولنا في شلال من التغيرات .

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة مغايرة تماما للوجود المادي المتغير الذي يتدفق حولنا في شلال من التغيرات .

هذه الحالة الداخلية التي ندركها في لحظات الصحو الداخلي والتي أسميتها حالة حضور .. هي المفتاح الذي يقودنا إلى الوجود الروحي بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذي اسمه الروح .. أو المطلق .. أو المجرد .

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح .. وندرك الحق ونميزه من الباطل .. وندرك العدل ونميزه من الظلم .. فنحن في كل مرة نقيس بمعيار .. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذي نقيسه .. فنحن إذن نقيس من نفس العتبة .. عتبة الروح .. فالوجود الروحي يدل عليه أيضاً الضمير .. ويدل عليه أيضاً الإحساس الجمالي .. وتدل عليه الحاسة الخفية التي تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح .

هل هذه العتبة خارج الزمن هي الأبد ؟ .. أو هي زمن آخر له تقويم مختلف .. اليوم فيه بألف سنة .. كما ورد في القرآن (ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وكما جاء عن أيام الله .. وهي أيام غير أيامنا ذهب في تفسيرها المفسرون كل مذهب كل

هذه تفاصيل لايمكن ادراكها .. وهى فى الغالب مجرد اشارات ورموز تشير ولاتبين وترمز ولاتشرح .. لأن بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فوق مستوى ادراكنا .. أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضرورى .

ولعل الروح هى طابع الحسن الذى تركه الخالق على كل منا كأثر من آثار يديه .. ولعلها من روحه هو اذ نفخ فينا من روحه .. فهى هبة منه ونفحة منه وشرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسه الأبدية .. وهى الصورة التى صورتها لنا الأديان .. وهى الصورة الأقرب والأجمل .

ونحن لانبتعد بعيداً إذا عرفنا هذه الروح داخلنا بأنها الحرية .. حريتنا الداخلية العميقة الباطنة فى أعماق السريرة والتى شاء الخالق أن تكون طليقة من كل قيد وحفظها من كل دخيل ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الأقداس وحرما محرما على الجميع إلا صاحبها .

فنحن فى أعماق سرائرنا نشاء كما يشاء الخالق ونختار كما يختار ولهذا أخلفنا على الأرض وجعل منا آلهة صغيرة تحكم وجعلها لنا محنة وامتحانا واختبارا وبروفة يكون بعدها سؤال وحساب وإعادة ترتيب فى مقامات يوضع كل واحد فى مقامه الذى استحقه بجدارته . .

ان منطقة السريرة هى منطقة الحرية وهى منطقة المساءلة

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى) .. ان منطقة النية والإضمار .. هى المنطقة التى يلاحظها الله بعلمه ويقيم عليها حسابه لأنها منطقة الحرية ... وإنما يبدأ الجبر وتبدأ القيود حينما ننطلق من السريرة إلى الفعل ثم إلى التحقيق فى العالم المادى .. هنا تتصادم الحريات مع بعضها البعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمع وتتدخل الإرادة الإلهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخير ولتخفف من ضررنا على بعضنا البعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمد كل واحد بمدد من الإمكانيات من جنس ضميره واستحقاقه .

ولهذا يستوى عندى أن أقول ان الله خلق لى روحا .

وأن أقول .. أن الله خلقنى حرية .. أو خلقنى فردا متفردا فكل عبارة منهما تشرح الأخرى .. وتصف من الأعماق مالا أستطيع أن أراه بالعين أو لمسه باليد .. أو أجد له ألفاظا ومصطلحات .

وفى منطقة الروح لانستطيع أكثر من إشارة ولانجد أكثر من رمز .. حيث نحن على عتبة خارج الزمن وخارج كل شىء محسوس ومنظور .

الله

وحدة نسيج الموجودات تدل على وحدة الخالق

منذ عشرين سنة كنا نقف فى مشرحة كلية الطب .. كل أربعة أمام جزء من أجزاء الجثة ..

وكنا نظن حينئذ أن حقيقة الإنسان ليست لغزا .. وأن فى إمكان المشرط أن يكشف عنها بضربة واحدة .. وأن الجسم ما هو إلا حقيبة إذا فتحتها عرفت كل شيء .

ولكن سنتين طويلتين مرتا .. وأنا أبحث وأنقب خلف اللحم والعظم .. وفى الأحشاء والأمعاء والشرايين والغضاريف عن هذه الحقيقة دون جدوى .

فتحت القلب .. وفتحت الرئتين .. وتتبعت الأعصاب حتى نهاياتها .. وصعدت مع الحبل الشوكى إلى المخ .. وقطعت المخ نصفين .. ثم قطعت كل نصف إلى نصفين .. وانتهيت إلى كتلة

رخوة هلامية بيضاء .. قال عنها الأستاذ .. أنها سر الإنسان .. أحقا .. ؟

أهنا يسكن الألم .. وترقد اللذة .. وتنام الإرادة .. فى هذه الكتلة المائعة الطرية ..

ورفعت رأسى فى قلق وتشكك .

لقد فتحت الحقيبة فوجدت داخلها حقيبة .. ومازلت بعد سنتين من التعب والكد واقفا حيث كنت أمام مجهول .

ان القناع الذى يغلف الإنسان ليس ثيابه وحدها .. فجلده ثوب آخر .. ولحمه وشحمه وعظمه كلها ثياب .. أما هو نفسه فبعيد .. بعيد .. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم .

وقرأت ثلاثة آلاف صفحة فى كتب التشريح .. وكانت الخلاصة النهائية أن الإنسان مجموعة من الأحشاء فى قرطاس من الجلـــد .

كلام غير صحيح ... مع احترامى لجهود السير كنجهام وجراى وجاميسون وبقية عمالقة الطب الذين تخصصوا فى وصف الإنسان . أنهم لم يصفوا الإنسان على الإطلاق . . إنما وصفوا ثيابه

انهم فى نظرى ترزية من نوع عصرى .. أبدعوا فى وصف موديلات المصارين والأمعاء .

ان القلوب المحفوظة فى برطمانات متحف كلية الطب ..هى

فتارين لتفصيلات مختلفة من القلب .. القلب الديكولتيه .. والقلب الجابونيز ..

أما قلب الإنسان الحقيقى .. عواطفه ودمه الساخن النابض بالرغبة فلا يوجد إلا فى داخلنا نحن الأحياء ..

ان حقيقة الحياة غير معروفة ..

انها حركة دبت فى المادة ..

حركة واعية هادفة حرة .. وطبيعة هذه الحركة لايعرفها أحد .. ولكنها أبدا ليست الجثة على أى حال ..

ان أجهزة الجسد حينما تعمل تشبه الأراجوز . فتبدو للناظر من بعيد كأعضاء حية .. تتكلم باختيارها وحريتها .. وهى فى الحقيقة قطع خشبية ميتة تحركها خيوط خفية من وراء خباء .

فى داخلنا أراجوز .

فى داخلنا زامر ينفخ فى بوق أجسادنا .. ويلهو بخيوط أطرافنا فتتحرك وتمشى وتتكلم .

وكذلك الكون كله .. الحيوان والنبات والجماد .. مجموعة أبواق متعددة .. فى داخلها .. فى قلبها زامر .. ينفخ على الدوام ..

والبراهمة الهنود لايعتقدون أن لكل مخلوق روحا تخصه .. لايعتقدون أن لكل حمار روحا .. ولكل كلب روح .. ولكل نحلة

روح .. وإنما يعتقدون بوجود زامر واحد ينفخ فى أبواق الكون وروح واحدة تسكنه .. ومعنى واحد تحققه المخلوقات .. كما تحقق الكلمات المتعددة .. الفكرة الواحدة البسيطة .. كما يحقق الرسام والموسيقار والنحات والأديب والشاعر .. المعنى الواحد فى سيل من المخلوقات الفنية .

وفى سفر اليوبانيشاد .. صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى فى أبيات رقيقة من الشعر.

ان الإله براهما الذى يسكن قلب العالم يتحدث فى همس قائلا :

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفى من أساليبى .
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه
وحيث أكون أنا الوحد
وأنا الأشياء

إنه اله يشبه النور الأبيض .. واحد وبسيط ولكنه يحتوى فى داخله على ألوان الطيف السبعة .

إنه الجنين الذى يحتوى على بذور الصفات كلها

لقد سلك الهنود جميع الموجودات فى كل .. وتصوروا لهذا الكل روحا واحدة .. سموها براهما

وما على براهما إلا أن ينفخ فى البوق ويحرك الخيوط التى تلتقى فى يديه فتتحرك الأراجوزات جميعا على المسرح .

وليس لبراهما عرش وليس له ميزان وهولايحاسب ولا يعاقب وهو ليس بشخص على الإطلاق .. إنما هوحقيقة الوجود فحسب.

ولاشك أن هذه الفلسفة الهندية القديمة قد عادت لتبعث مرة أخرى فى عشرات المذاهب الأوروبية .. دون تغيير أى شى سوى الاسم .

فما قال الهنود أنه براهما .. اعتقد به شوبنهور الألمانى وسماه الإرادة واعتقد به نيتشه وسماه القوة واعتقد به ماركس وسماه المادة واعتقد به برجسون وسماه الطاقة الحية واعتقد به هيجل وسماه المطلق .

كلهم قالوا ما قاله بوذا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة .

انى أقدم لكم لاهوتا بغير اله .. وعلم نفس بغير نفس .. ودنيا بلا آخرة .. وأن إلهى ليس شخصا .. وليس ملكا .. وليس خالقا للأشياء وإنما هو الأشياء ذاتها .

وقال بوذا مجيبا على الفقير الذى سأله : ما هى الروح :

— هذه غاية التأمل النظرى يا ولدى .. هذه صحراء .. وأنا لست بهلوانا

ومحور هذه الفلسفة الهندية القديمة هو هذا السطر المختصر

ان الله هو الواحد وهو الأشياء .. وأنه لايوجد خالق ومخلوق وإنما يوجد كل .. هناك الكل والله روح الكل ..

وفى هذه العبارة خلط واضح واعتساف نتائج لاتؤدى اليها المقدمـــات .

فكل ما تقول به الدراسة العلمية التشريحية للحياة والأحياء .. أن هناك وحدة نسيج وأن هناك وشائج قرابة وعلاقة رحم بين كل الموجودات حتى بين ما هو حى وما هو ميت .. بين تركيب النجوم والمجرات .. وتركيب الأشجار والحيوانات .

تماما كما تلاحظ مجموعة رسوم يظهر فيها أسلوب واحد وخامات ألوان واحدة وأنواع ورق متشابهة فالنتيجة الطبيعية أن تقول .. ان مثل هذه اللوحات لابد قد رسمها رسام واحد .. هو الذى انفرد بخلقها لم يشاركه فيها شريك ..

أما أن تقفز من هذه الملاحظة فتقول أن هذه اللوحات هى الرسوم وهى الرسام وأنه ليس لها خالق فان مثل هذه القفزة هى تعسف لامنطق له ولامقدمات تبرره وسببها هوالخلط بين وحدة الموجود ووحدة الوجود .. وانك اعتبرت أن الموجود المتعين المحدود هو فى ذات الوقت الوجود المطلق الغير محدد (الله) .

والخطأ الثانى هو انك تصورت أن حواسك هى الحكم النهائى فأنكرت أن يكون هناك عالم غير العالم المرئى لمجرد انك لاترى غيره .. إذن فلا يوجد غيب ولا آخرة .. ولا يوجد إلا هذا الموجود المرئى والله هو قلب هذا الموجود وحقيقته وانتهى الاشكال .. وهو نوع من التبسيط المخل ..

لايوجد غير الرسوم وهى فى ذات الوقت الرسام .. والرسام هو حقيقتها وقلبها وانتهى الاشكال ..

ثم الاعتقاد بالروح الواحدة التى هى روح الكل .. وانكار أن تكون هناك أرواح متعددة بعدد المخلوقات .. هو تعسف آخر .. هذه المرة قفزة فى الفراغ بدون استناد إلى أدلة أو حيثيات .. إنما هو حكم آخر بدافع المزيد من التبسيط ..

ولمجرد التبسيط ينتهى بنا التفكير إلى نتيجة غير مقبولة .. ان الله هو الواحد وهو الأشياء .. واننا أمام طبيعة وقوانينها وجوهرها ولاشىء غير ذلك فان سألت من خلق هذه الطبيعة

قالوا لك أنها قديمة لا أول لها ولا آخر وأنها هي الله .. فهي أزلية أبدية واحدة ومتعددة .. وهو تلاعب بالألفاظ هروبا من الثنائية التي يفرضها وجود الخالق والمخلوق .. وهروبا من التعدد الجوهري الذي يؤدي اليه الاعتقاد بأرواح متعددة.

والأديان السماوية هي التي قدمت الحل الوحيد لهذا الاشكال وما تقوله الأديان السماوية هو الوحيد الذي يقول به ويقبله التفكير العلمي .

فاذا كانت الدراسة العلمية التشريحيـــة للحياة والدراسة التحليلية الكيمائية لتراب الأرض والكواكب ولمكونات الماء والهواء قد كشفت لنا أن خامات هذه الدنيا واحدة .. وإذا كانت علوم التطور قالت لنا أن تطور الأحياء من الميكروبات إلى الأشجار والقرود دلت على وجود أساليب واحدة متشابهة وسنن وقوانين متطابقة تعمل .. فان النتيجة الطبيعية أن نقول أن خالق الدنيا والكون والحياة لابد إذن أن يكون خالقا واحداً لم يشرك في صناعته شريكا آخر .. وأنه انفرد تماما بخلق الدنيا .. ولا نقول أبدا أن هذا الخالق هو الدنيا .. وأنه هو الطبيعة .. وأنه هو المخلوقات .

ومرة أخرى تقول لنا العلوم القطعية .. أن ما يقع في نطاق ادراكنا الحسي ليس هو كل شيء .. وأن العالم زاخر حولنا بموجودات غير مرئية وغير ملموسة وغير مسموعة ومع ذلك هي

يقينية مثل وجودنا اليقيني نفسه .. مثل ذلك الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية .. وأمواج اللاسلكي والرادار وأشعة اكس .. ومثل هذه الأمواج كانت موجودة قبل أن نخترع الراديو ومحطة إذاعة ماركوني وجهاز أشعة اكس .. هذه الأمواج كانت وما زالت تنصب علينا من الشمس منذ ملايين السنين وكانت تحيط بنا دون أن نراها أو ندرى بها .. فالقول بالغيب والملائكة والمخلوقات الغير مرئية أمر طبيعي .. والعكس هو غير الطبيعي .. أن ننكر مالانرى لمجرد أننا لانرى مع علمنا بحدود حواسنا أمر غير طبيعي..

والقول بأن الخالق الذى خلق المخلوقات خلق لها أرواحا أمر طبيعي ..

فاذا رأينا الدقة والاحكام والانضباط فى نظام الكون من حركة الذرة إلى دوران الأفلاك .. وقلنا .. أن مثل هذا الكون المحكم لايمكن أن يفلت فيه ظالم .. ونه لابد من حساب وعقاب لكل من يفلت من العقاب فى الدنيا .. لكان قولنا طبيعيا ومنطقيا مع جميع المقدمات العلمية المشاهدة .. فلا يوجد دليل علمى واحد على الفوضى فى قوانين الطبيعة .. ولابد لخالق هذه الطبيعة الرائعة أن يكون خالقا عادلا .

والذى يستبعد البعث .. ويصدق أن الجراح الدكتور برنار يبعث قلب رجل ميت بأن ينقله إلى جسد آخر حي فيعود حيا

ويكذب : ان الذى خلق برنار والكون الذى يعيش فيه برنار يستطيع أن يحقق معجزة بعث مشابهة .. هو انسان مكابر محدود الفهم .

وان تأتى هذه الحقائق على يد بدوى أمى لايعرف القراءة والكتابة .. فيأتى لنا بقرآن يغير التاريخ ويطابق كشوفات العلم قبل أن تحدث هذه الكشوفات بقرابة ألف وربعمائة سنة هو أمر لايمكن أن يأتى إلا وحيا وتلقينا من الإله الذى يعلم كل شيء .

والذى يقول لك فى سذاجة .. ان الله رحيم وسوف يدخل كل الناس الجنة وهل من المعقول أن يضع الله رأسه برأسنا ويحاسبنا على كلام قلناه وأفعال فعلناها ونحن بالنسبة لله ولعظمة الله كالنمل أوذرات التراب أو ذرات الهباء .. غير معقول .. إن الله كبير جداً أكبر من أن يعذبنا .

الذى يتصور الله بهذه الصورة ويظن أنه مؤمن به إيمانا رفيعا .. ينسى أنه بهذا التصور الساذج يطالب الله بالظلم وبأن يسوى بين الأسود والأبيض ويجعل الظالم كالمظلوم والقاتل كالقتيل فى حكمه وهذه هى الفوضى بعينها .

ولو أنه درس القليل من الكيمياء والطبيعة لعلم أن قوانين الله لاتسوى بين الذرات .. حتى الذرات .. وأن كل شيء يتحرك باحكام من الالكترون الصغير إلى اجرام السماوات العظيمة فى

توافق مع منطق علمي دقيق وأن الذرات تتحد وتتفاعل مع بعضها بحسب أوزانها الذرية مع أن هذه الأوزان مقادير ضئيلة جدا جدا جدا .

وأنه باستقراء عجائب الكون ودقة سيرها وإحكام تطورها فان العقل ليصرخ .. بين يدى هذه القدرة لا يمكن أن يفلت ظالم ولا أن يهرب قاتل أخطأته قوانين الأرض .

ان العدالة تنتظر الجميع .

يقول هذا الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر

كما تقوله الكتب السماوية ...

وهى الكتب الوحيدة التى تجيب على لغز الموت اجابة مازالت تتحدى جميع العلوم .

●

فهرست

الغلاف بريشة الفنـــان « بهجت عثمان »

صدر للمؤلف

● اسلاميات

- الله
- القرآن
- التوراة
- رحلتي من الشك الى الايمان
- الطريق الى الكعبة
- الماركسية والاسلام

● قصص قصيرة

- أكل عيش
- شلة الانس
- عنبر ٧
- رائحة الدم

● روايات

- المستحيل
- العنكبوت
- رجل تحت الصفر
- الخروج من التابوت
- الأفيـون

● رحـلات

- الغـابة
- الصحراء
- حكاية مسافر

● دراسات

- اينشتين والنسبيه
- الأحـلام
- لغـز الحياة
- لغـز الموت
- رأيت الله

● مقالات

- الله والانسان
- ابليس
- يوميات نصف الليل
- في الحب والحياه
- الشيطان يحكم
- حوار مع صديقى الملحد
- الروح والجسد

● من رسائل القراء

- اعترفوا لى
- ٥٥ مشكلة حب
- اعترافات عشاق

● مسرحيات

- الزلزال
- الانسان والظل
- غوما
- الاسكندر الاكبر
- الشيطان يسكن فى بيتنا

الثمن ٤٠ قرشا

الناشر : دار النهضة العربية ـ ٣٢ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة ـ ت : ٧٦٢٢٣١